

كتاب الأمة

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

العدد : ١٥١ رمضان ١٤٣٣ هـ السنة الثانية والثلاثون

علم الجمال
رؤية في التأسيس القرآني

د. عبد العظيم صغيري

عبد العظيم صغيري

* من مواليد المملكة المغربية.

* الإجازة العليا في الشريعة.

* دبلوم الدراسات الإسلامية العليا في علوم القرآن والحديث.

* دكتوراه في وحدة «الإسلام والإبداع الفني»، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القاضي عياض.

* دكتوراه في وحدة «خدمة التراث الناشئ عن القرآن والحديث عامة وفي الغرب الإسلامي خاصة».

* يعمل حالياً أستاذاً مساعداً في «العقيدة والفكر الإسلامي» مؤسسة دار الحديث الحسنية، الرباط.

* نُشرت له مجموعة من الدراسات العلمية، في مجال الفقه والفكر والأدب والاقتصاد الإسلامي.

* شارك في عدة ملتقيات فكرية، ومؤتمرات دولية.

* E-Mail: srhayri2000@yahoo.fr



كتاب الأمة

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية- قطر

ص.ب: ٨٩٣ الدوحة - قطر

من شروط النشر في السلسلة

- أن يهتم البحث بمعالجة قضايا الحياة المعاصرة، ومشكلاتها، ويسهم بالتحصين الثقافي، وتحقيق الشهود الحضاري، وترشيد الأمة، في ضوء القيم الإسلامية.
- أن يتسم بالأصالة، والإحاطة، والموضوعية، والمنهجية.
- أن يشكل إضافة جديدة، وألا يكون سبق نشره.
- أن يُوثق علميًا، بذكر المصادر، والمراجع، التي اعتمدها الباحث مع ذكر رقم الآيات القرآنية، وأسماء السور، وتخريج الأحاديث.
- أن يبتعد عن إثارة مواطن الخلاف المذهبي، والسياسي، ويؤكد على عوامل الوحدة والاتفاق.
- يفضل إرسال صورة عن البحث، لأن المشروعات التي ترسل لا تعاد، ولا تسترد، سواء اعتمدت أم لم تعتمد.
- ترسل السيرة الذاتية لصاحب البحث.
- تقدم مكافأه مالية مناسبة.

هذا الكتاب.. يعتبر محاولة جادة للكشف عن الرؤية الإسلامية أو المذهبية الإسلامية وتأسيسها وتأصيلها للجمال انطلاقاً من القيم الإسلامية.. وتأتي أهمية هذا الجهد المعرفي والثقافي من أن المكتبة الإسلامية بشكل عام ومجالات البحث في هذا الشأن لم تتوفر إلا على النذر اليسير الذي لا يكاد يكشف عن المذهبية الإسلامية في مسألة الجمال، على الرغم من غنى القيم الإسلامية وتجلي ذلك بشكل واضح في الحياة والحضارة الإسلامية.

لذلك فقد لا يكون مستغرباً، أن يُتهم الإسلام والمسلمون بالعداوة للفن والجمال، والزعم أنهم ضد الجمال واعتباره من المحرمات.. ولعل في ذلك قدر من الحق والكثير من التجني، ذلك أن الإسلام دين الفطرة بكل أبعادها، فطرة الله التي فطر الناس عليها، وأن دعوته للمسلم أن يكون كالشامة بين الناس، ملتزماً بآداب الطعام والشراب والاغتسال والزينة، وأن من تعاليم الإسلام أخذ الزينة عند كل مسجد عند كل تجمع إنساني، واستنكار تحريم زينة الله الذي أخرج لعبادة والطيبات من الرزق.

وقد يكون مرد تشكل هذه الصور المشوهة عن الدين والتدين تجاه الاستمتاع بالجمال وتنمية الإحساس به، هو الموقف مما انتهى إليه الفن المسمى بالجميل من الارتكاز إلى الغريزة والشهوة بدل الفطرة، وانتهاك الحرمات وممارسة العهر والإباحية والعري وتقديم الصور الفاضحة المنافية للفطرة باسم الفن والجمال!

فالجمال يتألق ويترقى كلما كان منطلقاً من الفطرة، ويصبح أكثر نطقاً ودلالة بقدر ما يحمل من معاني الخير وبما يستدعي من مديد النظر والتأمل والتعمق، للولوج إلى الفكرة والرسالة، التي تكمن وراء المنظر الجميل أو المظهر الجميل.

موقعنا على الإنترنت : www.sheikhali-waqfiah.org.qa

www.Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني : E-mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

علم الجمال
رؤية في التأسيس القرآني

الدكتور عبد العظيم صغيري

الطبعة الأولى

رمضان ١٤٣٣هـ

تموز (يوليو) – آب (أغسطس) ٢٠١٢م

عبد العظيم صغيري

علم الجمال.. رؤية في التأسيس القرآني.

الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠١٢م.

١٧٢ص، ٢٠سم - (كتاب الأمة، ١٥١)

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ٢٠١٢/١٤٤

الرقم الدولي (ردمك): ٩٧٨-٩٩٩٢١-٩٢-٢٣-٨

أ. العنوان ب. السلسلة

موقعنا على الإنترنت : www. sheikhali-waqfiah.org.qa
www.Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني: E. Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

يقول تعالى:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ
لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ
ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ
كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

(الأعراف: ٣٢)

تقديم

عمر عبيد حسنه

الحمد لله، الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، فسواه بيده ونفخ فيه من روحه وصوره فأحسن تصويره، فتبارك الله أحسن الخالقين؛ يقول تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين:٤)، ويقول: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ (غافر:٦٤)، وبذلك فالإنسان ليس فقط محل تذوق الجمال ووسيلة اكتشافه والاستمتاع به وإدراك قيمته بما جهز به من الحواس اللاقطة المتذوقة والعقل الذي يشكل المرآة واللوحة المستقبلة، وإنما هو أيضاً بؤرة الجمال بقوامه وقامته وتناسق وانسجام خَلْقه ومؤهلاته وقدرته على تذوق الجمال والاستمتاع المباح به وصيانته عن الدنس والقباحة والابتذال والانفلات، والارتقاء والتسامي به، وامتلاك مفتاح الولوج إلى كنهه، وإدراك رسالته ومغزاه في الحياة والكون والإنسان، الذي يقوده إلى الإيمان بصانعه ومشكّله.

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، منقذ الإنسانية من الضلال، الهادي لقيم الحق والخير والجمال، الذي ارتقى بالخصائص

والصفات الإنسانية إلى مرحلة الكمال والاكتمال التي تشكل أعلى مدارج الجمال وغايته، يقول تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ﴾ (المائدة:٣)، وبذلك حررت قيم الإسلام مفاهيم الجمال من كل التباس، وخلصتها مما يمكن أن يداخلها من غبش وغش وكبر وتعال وابتذال، وصانتها من الاقتصار على الشكل والهيكل وعدم النفاذ إلى تذوق الأبعاد والقيم المعنوية والخلقية للجمال.

ولعل ما ورد في حديث عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ من قوله: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»، إضافة إلى ما رواه أبو هريرة، رضي الله عنه، أن رجلاً أتى النبي ﷺ، وَكَانَ رَجُلاً جَمِيلاً فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، إِنِّي رَجُلٌ حُبِّبَ إِلَيَّ الْجَمَالُ وَأُعْطِيتُ مِنْهُ مَا تَرَى حَتَّى مَا أُحِبُّ أَنْ يَفُوقَنِي أَحَدٌ -إِمَّا قَالَ: بِشِرَاكِ نَعْلِي، وَإِمَّا قَالَ: بِشِسْعِ نَعْلِي- أَفَمِنْ الْكِبْرِ ذَلِكَ؟ قَالَ: لا، وَلَكِنَّ الْكِبْرَ مَنْ بَطِرَ الْحَقَّ وَغَمَطَ النَّاسَ» (أخرجه أبو داود).

لعل ما ورد في هذه الآثار، وغيرها، يبرز الملامح الرئيسة لأبعاد مفهوم الجمال، ويكشف عن الرؤية الإسلامية لمكوناته، ولذلك دلالات بعيدة وإشارات واضحة وآفاق ومساحات فنية مغرية ينطلق إليها ويستمتع بها الخيال.

فعبارة: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ» ليست مجرد مقولة عابرة، وإنما هي حديث شريف أخرجه الإمام مسلم، في صحيحه، وأخرجه أيضاً عدد كثير من أهل الحديث.

فالجمال والتجمل في الإسلام هو النعمة والتنعيم، الذي يدعو إلى الشكر والمتعة التي لا تصحبها مخيلة ولا كبر، فقد أخرج أبو داود عَنْ أَبِي الأَحْوَصِ، عَنْ أَبِيه، قَالَ: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي ثَوْبٍ دُون، فَقَالَ: **أَلَكَ مَالٌ؟** قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: **مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟** قَالَ: قَدْ آتَانِي اللَّهُ مِنَ الإِبِلِ وَالْغَنَمِ وَالْخَيْلِ وَالرَّقِيقِ، قَالَ: **فَإِذَا آتَاكَ اللَّهُ مَالاً، فَلْيُرَ أَثَرُ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ وَكَرَامَتِه**».

قال المناوي في «فيض القدير»: «وكان الحسن يلبس ثوباً بأربع مائة، وفرقد السنجي يلبس المسح، فلقي الحسن فقال: ما ألين ثوبك! قال: يا فرقد، ليس لين ثيابي يبعدني عن الله، ولا خشونة ثوبك تقربك منه، إن الله جميل يحب الجمال».

لذلك نقول: إن ما روي في تلك الآثار، وغيرها، يشكل الرؤية الإسلامية للجمال، بكل أبعادها المادية والمعنوية، ويوضح القيم الخيرة المركوزة في الفطرة الإنسانية والمتمثلة للصور الجمالية، التي يتوافق فيها وينسجم جمال الشكل والمضمون، جمال المبنى وجمال المعنى، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

وبعد:

فهذا «**كتاب الأمة**» الحادي والخمسون بعد المائة: «**علم الجمال.. رؤية في التأسيس القرآني**»، للدكتور عبد العظيم صغيري، في سلسلة «**كتاب الأمة**»، التي تصدرها إدارة البحوث والدراسات الإسلامية في وزارة

الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، سعياً منهاإلى بيان أبعاد رسالة الاكتمال والكمال، التي انتهت إليها النبوة التاريخية وتمثلت وتجلت واتضحت ملامحها وسماتها وأنساقها وتناسقها وانسجامها في عطاء النبوة الخاتمة، الذي يشكل السِفْر الخالد المفتوح للقراءة الإنسانية بكل حقولها وآمالها وتطلعاتها وأشواقها وسعادتها ونزوعها إلى الكمال الفطري، الذي يتحقق بالخلود بعيداً عن المتع الموقوتة الزائلة: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ (غافر:٣٩).

لذلك فقد تبدو الإشكالية في الرؤية الجمالية المبتورة المفككة لعناصر الجمال وآفاقه، التي تحوله إلى ومضات سريعة ومتع آنية ولحظات يخالطها الأسى والخوف والهلع مما تحمل هذه العناصر في جوفها من عوامل انقضائها، لذلك نراها تدفع الكثير من متذوقيها إلى حالة من الانبهار، الذي يداخله الخوف مما بعدها، والحيرة في كيفية الاحتفاظ بها، وعدم القدرة على الصمود أمامها، حالة قد تدفع ببعضهم إلى الانتحار ظناً منهم أن ذلك يحتفظ بسعادتها ويخلدها في نفوسهم ويحول دون انقضائها ومعاناة عواقبها أو عقابيلها .

لذلك نقول: إن وضوح فلسفة الجمال في القيم الإسلامية وشموليتها وفطريتها وتحقيقها للانسجام والتجانس والتناسق الساحر بين الكون والإنسان والحياة، وامتداد هذا التناسق والضبط في النسب والانسجام مع الرؤية الكلية للحياة والمؤاخاة بين مكوناتها ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا

طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ (الأنعام:٣٨)، هو الذي يحمي الإنسان من التبعثر والتمزق والضلال والتآكل.

فالرؤية الإسلامية للجمال رؤية هادفة، تمجد الجمال وتهفو إليه وتبصره في قيم الحق والخير والعدل والحب والإيثار والإخاء والعفو والرحمة، وتربي الإنسان على تذوق هذه القيم وممارستها والحس بالسعادة الغامرة عند ممارستها، والتسابق في الخيرات لبلوغ درجة الكمال المنشود فيها، الذي يعني الوقوف على قمة الجمال، كما يعني الاحتفاظ بعطاء الجمال وتخليده، تخليد الجمال والاستمتاع به في الدنيا والنزوع إليه في الآخرة.

وهنا قضية قد يكون من المفيد التوقف عندها وفتح بعض النوافذ وإلقاء بعض الأضواء أو الإضاءات عليها، وهي أنه على الرغم من أن إدراك الجمال نسبي ورؤيته وتذوقه ذاتي، إلى حدٍ بعيد، حيث يرتبط تقديره والإحساس به وتذوقه بكثير من المكونات الثقافية الذاتية من مثل العقيدة والتربية وتكاليف الحِل والحرمة في الطعام والشراب والزينة والبيئة المحيطة والموروث الاجتماعي أو ما يمكن أن نطلق عليه بشكل عام مصطلح «الشاكلة الثقافية»، التي تتحكم بتشكيل وصقل وتنقية وصفاء المرآة اللاقطة، وتنمية الاستعدادات والقابليات المركوزة في النفس البشرية، إلا أن الفيصل الأساس بين الرؤى المتعددة أو الفلسفات الجمالية المتنوعة - فيما نرى- يتمحور حول المنطلق الرئيس لرؤية الجمال، الذي

يتحكم في بلورة قيمه وتحديد مقاييسه وأهدافه وإدراك التباينـــات الكـــبيرة بين اتجاهاته.

ذلك أن التناقضات والفروق سوف تكون كبيرة بين رؤية جمالية تنطلق من الفطرة الإنسانية وتنساب منها وتبصر ذلك الانسجام والتناغم بين الخلق كله والحياة كلها، ورؤية ترتكز إلى الغريزة؛ فالرؤية التي تنطلق من الفطـــرة تسعد بالتزام وممارسة القيم السامية، وتسر بالتسابق إلى فعل الخير، وتبـــصر ذلك في توجه كل الكائنات، وتتذوقه في كل المشاهد والمخلوقات، حتى في أشد حالات الكروب والمحن والعسر فهي تبصر اليسر في مكونات العـــسر، وتتذوق العذوبة من خلال العذاب والمجاهدة والمـــوت في ســـبيل تحقيـــق الأهداف الكبرى، التي تشكل رسالة الإنسان في الوجود، وتبصر أيضاً سبيل السعادة الممتد باتجاه الخلود، الذي سوف لا يتحقق إلا بالإيمان بيوم الخلود، فالإنسان بطبعه وفطرته ينـــزع إلى البقاء، ونلحظ ذلـــك مـــن ســـعيه إلى الاحتفاظ بالصور الجمالية، ومحاولته تثبيتها بشتى الوسائل، والتوجه صـــوب الأعمال الباقية في الدنيا، التي تضمن استمرار ذكره وحضوره ويسعد بهـــا، وتهفو نفسه إلى يوم الخلود المغروز في فطرته حيث الجمال الدائم والعطـــاء لكل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين.

إن الانطلاق في الرؤية الجمالية من الفطرة تجعل الإنسان يدرك أن المتع في الدنيا موقوتة وزائلة، وسوف ينتهي به ذلك إلى السعـــادة بتذوق حلاوة الإيمان بيوم الخلود حيث المتع الباقية.

وهذا لا يعني بحال دعوة للعزوف عن التمتع والاستمتاع بالجمال في الدنيا وتجاوز متعها الفانية وتحريمها على النفس انتظاراً لمتع الآخرة الباقية واعتبار أن ذلك من التدين الصحيح، وإنما يعني التوازن: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً﴾ (البقرة:٢٠١)، والقراءة بأبجدية صحيحة لكيفية التعامل مع الجمال والاستمتاع به ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ (الأعراف:٣٢).

ولعلنا نقول هنا: إن ما يراه الإنسان ويعيشه في الدنيا من الصور الجميلة والمتع والسعادة الموقوتة واللذائذ، التي تحقق حظوظ النفس، لا يقتصر في الرؤية الإسلامية على التمتع بها وإنما يرتقي إلى الإيمان بقدرة وجمال الله الخالق، مبدعها ومانحها، وبذلك تتحول لتشكل له وسيلة إيمان بالله بهذا الخالق القادر على زوالها، كما تشكل له نوافذ أمينة تعينه على إبصار مشاهد اليوم الآخر بكل ألوانها وأشكالها وإغرائها، وما أعده الله لعباده المؤمنين من الجمال الخالد مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فيكون تذوق المتعة الحلال في الدنيا الفانية مطمئناً له وسبيلاً للانضباط وتصويب السعي للوصول إلى المتعة الخالدة في الآخرة الباقية.

إن ما يبصره الإنسان من اللوحات البديعة الجمالية الفنية المتنوعة المجالات في تناغمها مع مشاهد الكون والإنسان والحياة الإنسانية، التي تهفو نفس الإنسان للوصول إليها، والاستمتاع بها، وتسمو بها إلى الإيمان بمبدعها

وقدرته على تخليدها، وتدعوه إلى الاستجابة لتكاليفه والانسلاك في الطاعة وتذوق حلاوة الإيمان وجماله ومتعه: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ (الشرح:٧-٨)، إن ما يبصره الإنسان في الدنيا من آلاء الله الجميلة يحمله على أن يغز السير في طريق الطاعة ليحط رحاله في الجنة، التي وُعِد المتقون.

فحلاوة الإيمان وعذوبة المتعة وسعادة الأمل وانسجام الحياة في لحن التسبيح وإيقاعه ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء:٤٤)، ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ (سبأ:١٠)، في رحلة الحياة صوب المصير الموعود والنظر إلى الله الجميل خالق الجمال ومبدعه، المتصف بالجلال والكمال، هي غاية الغايات.

وليس الأمر كذلك، بكل فلسفته ومعطياته، عندما تنطلق الرؤية الجمالية من الغريزة البهيمية وتتمحور حول اللذائذ الفانية وتستجيب لنداء الشهوة الموقوتة التي تنتهي بصاحبها إلى الجحود لله والكفر بآلائه وعدم إدراك أبعاد وتناسق وانسجام خلقه.

إن ارتكاز الرؤية الجمالية إلى الاستجابة للغريزة المتأججة (وهي حالة غير سوية) والومضات الآنية لنزوات الإنسان، والانغماس في اللحظة دون إبصار عواقبها وعقابيلها شعاره: (اليوم خمر وغداً أمر)، يشوه الرؤية الجمالية ويبعثرها ويهبط بها إلى مستوى الحيوان، الذي لا يعقل ولا يتذوق الجمال وإنما يندفع ويتحرك بدوافع غريزية محرومة من عنصر الإدراك.

فالارتكاز لدوافع الغريزة ومحركاتها وتفكيك الصورة الجمالية وتجزيئها والتعامل مع أحد مكوناتها يورث الكآبة، وينسج خيال المأتة، ويبرز جوانب القبح، ويشوه ويعبث بتناسق الصورة ويحول دون شموليتها وتذوقها من كل مكونات الإنسان وكل حواسه.

وقد لايكون مستغرباً أن نرى أن الذين ارتكزوا في تقييم الجمال وبناء الصورة الجمالية إلى الغريزة، التي تمثل الجانب البهيمي، والاستجابة للشهوة والسعي وراء اللذة الآنية، التي تحمل عوامل فنائها وانقضائها في ذاتها، لم يمكنهم الاحتفاظ بتوازنهم وتماسكهم والانضباط بملكاتهم العقلية والاحتفاظ بها، حيث انتهوا في معظم الأحوال إلى إلغاء العقل وتعطيل الحس بتناول المخدرات والمسكرات ومعاناة الاختلال العقلي والجنون وما يعقب ذلك من التفكك الأسري، والفساد الاجتماعي، وكأن تذوق الجمال والتمتع به يناقض الخيرية والسعادة وسكينة النفس والحياة المطمئنة (١)

ولعلنا نقول هنا: إن محل الجمال في النهاية هو لوحة الخَلْق، هو لوحة الحياة، بكل معطياتها وتراكيبها وقوانينها وألوانها ومخلوقاتها وأصواتها وحركتها وانتظامها وآفاقها وتنوع أشكالها وكواكبها وتعاقب مساراتها وصباحها ومسائها، ينعكس ذلك كله على الحس والسعادة بجمال العمل والعطاء، والاستمتاع بالانسلاك في قافلة الحياة، والاستمتاع بحب الخير، والتحقق بسمات الكرم والتسابق إلى فعلها، والتخلق بأفعالها من العفو

والعدل والإيثار والحب والإحسان وإلحاق الرحمة بالخلق جميعاً، وتذوق حلاوة الإيمان في النفس، الذي يشكل الوعاء لذلك كله، فالله سبحانه وتعالى، مصدر الخير والجمال، محل الإيمان، حتى في لحظات التعامل مع ما أحله الله للإنسان من الطعام والشراب، بكل ضوابطها وأدابها: «كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ» (أخرجه مسلم)، «كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلا مَخِيلَةٍ» (أخرجه البخاري)، فالإحسان وإلحاق الرحمة والتراحم الغاية والمقصد الأساس للإيمان والتدين.

لذلك نرى أن الجمال الذي مصدره الخالق العظيم يرسم للحياة لوحة مؤثرة متناسقة الألوان، منسجمة الإيقاع، متناغمة العناصر، متنوعة الأشكال والأصوات، يحدوها التسبيح لحن التوجه صوب الخلود ونداء الفطرة ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ (الإسراء:٤٤)- كما أسلفنا- فكما أن الارتكاز إلى الغريزة هبوط وارتكاس بالجمال واختزاله في بعده البهيمي فإن تفكيك الصورة الجمالية وتجزيئها عبث وتشويه وتمزيق واختلال في النظر، وفساد في التذوق، وعجز عن الرؤية، وتعامل مع الجمال بغير أدواته.

فالجمال آفاق ممتدة متجددة مفتوحة أمام الإنسان في كل مستوياته وأحواله وحالاته، آفاق بلا حدود، لذلك فكلما حاولنا نزع القيود

والقوالب والكوابح ومحاولات التقنين عن الحواس والعقل ارتقينا إلى ارتياد آفاق أبعد وأجمل، وتحصلنا على المتعة والراحة والانشراح، وعدنا بروح جديدة متجددة وعزيمة راشدة؛ فالتمتع بالجمال غسيل للروح، وتنقية للنفس، وتطهير للعمل، وعودة لإنسانية الإنسان، وخلاص من مصائب الدنيا، وفرار إلى الله.

من هنا نقول: إن محاولات تنهيج الجمال وإخضاعه لحدود العلم وتعاريفه وتفاصيله وتفريعاته قد يتناقض مع طبيعته ويفقده بعض روائه وعطائه وإدراكه وتذوقه، فالجمال رؤية مفتوحة، لذلك فالانشغال بالبحث عن حدود الجمال ومقوماته عن البحث فيه وصقل أدوات تذوقه وتنقية مرآته والانفعال به، يناقض طبيعته، وهذا لا ينافي أن هناك خصائص مشتركة يبصرها الناس جميعاً أو معظم الناس إلا أن الرؤية الجمالية تبقى ذوقاً ذاتياً، واستعداداً ذاتياً، وتأهلاً نفسياً، وتمريناً وتربية على تنمية الذوق، وتطوير الإحساس بالجمال، وبناء الشخصية ذات الحس المرهف والذوق الرفيع؛ فرؤية الجمال وتذوقه وإبصار مكوناته وتأثيراته على الخيال والنفس والسلوك ثقافة وأخلاق، بل يمكن القول: إن الجمال هو من أهم مكونات الثقافة الفردية والمجتمعية وسبيل الخلق الرفيع.

فالإنسان، الذي خلقه الله في أحسن تقويم هو محل الجمال وأداته ووسيلته في الوقت نفسه، والفوارق الفردية تبدو أكثر وضوحاً في إدراك

الجمال، فالمنظر الواحد قد تتفاوت وقد تتناقض فيه الرؤية الجمالية لدرجة قد لا تبقي حدوداً معرفية تتمايز في موضوع الجمال.

لذلك نقول: إن تسمية الرؤية الجمالية بالعلم فيه الكثير من المجازفة والتجاوز العلمي والمعرفي، ولئن كانت بعض العلوم النفسية والاجتماعية بشكل عام ما تزال إلى اليوم لم ترق إلى مستوى العلم بتعاريفه وحدوده فإن الرؤية الجمالية ستبقى عصية على التقنين والتعريف والتنهيج؛ وجماليتها في انطلاقها ورحابتها ومرونتها وذاتيتها.

فالإنسان الذي خلقه الله على صورته في أحسن تقويم وهو محل الجمال وأداته ووسيلته -كما أسلفنا- زوده الله بمجموعة حواس تعتبر مرآة لاقطة لصور الجمال وآفاقه المتعددة، كما يعتبر العقل مرقاة للتسامي والارتقاء بالجمال إلى مراحل الكمال وتذوق حلاوة الإيمان بالله الجميل مصدر الخلق الجميل.

فالجمال ليس محله العين فقط، التي تبصر المناظر الجمالية وتحسها وتنقلها إلى العقل، محل إدراكها وتمثلها، وإنما للأذن مجالها في سماع الأصوات الجميلة والألحان الساحرة وإيقاع الألفاظ والبيان المؤثر في النفس والعقل: «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا**» (أخرجه البخاري).

ومن هنا ندرك لماذا كان المشركون يفرون من سماع القرآن والشغب عليه عناداً منهم وخوفاً من أن يأسرهم تأثيره في النفس والعقل فيقودهم إلى الإيمان: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ (فصلت:٢٦).

وليست الحواس الأخرى من مثل اللمس والذوق والشم أقل حظاً وشأناً في تذوق الجمال وتمثله ونقله إلى مركز الإدراك، فالحواس جميعاً هي النوافذ، التي نطل منها على المنظر الجميل بكل مكوناته وتأثيراته، إضافة إلى أن المنظر الجمالي لا يقتصر على المكون المادي، ذلك أن المكون المادي هو أحد مجالاته، وإنما يتعداه إلى تذوق الجمال وأنس النفس وارتياحها واستمتاعها بنصرة وممارسة الأعمال الخيرة والمعاني الجميلة، مهما كلف ذلك من مشاق، وعمل الخير والتسابق إليه، والمسالك النقية والنفوس التقية، وولوج جميع أبواب الإحسان، وتذوق حلاوة الإيمان وأثره في النفس، ورؤية جمالية اليسر في معاناة العسر، ورؤية جمالية الفرح في قلب الشدة، ورؤية المنحة في قلب المحنة، ورؤية انفساح الحياة في شدة الكرب، ورؤية سبل السلام والانخراط فيها، مهما كلف ذلك من مشاق، والانسلاك في لحن الكون والحياة الخالد والعمل الممتع ليوم الخلود.

إن المسلم يبصر الجمال في كل خلق من خلق الله، حتى صور القبح التي تمر أمام حواسه المتعددة يرى أنها تساهم في دعم الجمال وتظهره وتغري به؛ وبضدها تتميز الأشياء.. إن القبح، ورب ضارة نافعة -والشر من لوازم الخير- يشكل مساهمة سلبية في إبراز صور الجمال في القول والفعل؛ لأنها تنفر من القبح في الشكل والممارسة.

إن المسلم يبصر الجمال في الخَلْق الصادر عن الخالق المبدع الجميل الرحيم، يبصره في اتساق الحياة ووحدة وانسجام عناصرها، في انسجام الكون والإنسان

والحياة، إنه يبصر جمال الوحدة والتنوع والانسجام الذي ينتهي بـه إلى الحس فطرياً بالخلود والتروع إليه، الأمر الذي يقوده عضوياً ونفسياً وعقلياً إلى الإيمان بالله الواحد وإبصار آثار التوحيد والإحساس به في كل شيء.

وقد لا يكون من مكرور القول: إن للجمال عناصر ومكونات ومقومات مشتركة وعامة يمكن محاولة تحديدها والنظر في تأثيرها، كما أن هناك تربية وتدريباً لتمرين الإنسان والارتقاء به للإحساس بها وإدراكها، وعلى الرغم من تفاوت درجات الإحساس بحسب طبيعة التنوع في الخلق ووجود الفوارق الفردية، يبقى هناك قاسم جمالي مشترك يدركه الجميع.

نعاود القول: إن رؤية الجمال في لوحات الوجود تبقى استعداداً فطرياً خَلْقياً وتذوقاً ذاتياً، كشفاً وانكشافاً واستشفافاً، حتى ليكاد يتجاوز بعض الناس الصور الظاهرة للقبح ليبصر ما تتضمنه من بذور وعناصر الخير والجمال، التي يصاحبها، ومهما حاولنا الانسلاك في قواعد وقوانين وتدريبات على تذوق الجمال وتنمية حواسه وتحريضها تبقى المساحة الذاتية في التذوق والنظر عصية عن التطويع والقولبة.

لذلك نقول: إن طبيعة الموضوع تحمل الكثير من التنوع في الرؤى والنظر والمذاهب والمدارس والنظريات والتباين في وجهات النظر، الأمر الذي يجعل من هذا الموضوع أفقاً لا يمكن تحديده وفصله عن جميع موضوعات الحياة، أو بمعنى آخر هو عصي عن تحديد محله وموضوعه؛ فنظرياته ورؤاه أكثر من أن تحصى وتحصر، وملامحه تختلف من إنسان لآخر،

وقد تتمايز المذاهب الجمالية والنظريات الجمالية بحسب القيم الموجهة لتلمسه وإدراكه والعقيدة التي تشكل المصباح المنير المرافق لرحلة الإنسان وإبصاره الأشياء وتمده بأبجدية قراءتها بالحواس الخمس بكل استعداداتها ومعطياتها.

فالأصح القول: إن الجمال رؤية لها عواملها ومعالمها وذاتيتها، والجمال نظر أو نظرية، وقد يكون من المجازفة القول: إن الجمال علم، بكل ما تحمل كلمة علم من تعريف جامع مانع، من منهجية وموضوعية واستقلالية وحدودية، فتعريفه حتى عند المشتغلين فيه هو نوع من المقاربة، غير جامع ولا مانع، بل إن التعاريف والتأطير والتنهيج قد يناقضه ويشوه تذوق الجمال نفسه، كما أسلفنا.

ولكلٍ رؤيته الجمالية المنبثقة عن فطرته وعقيدته وقيمه وتشكيله الثقافي، لذلك فالرؤية والنظرية والمذهب والمدرسة على الرغم من أن تعددها يشرح المنظر الواحد ويفككه ويمزق وحدته وعضويته إلا أنها قائمة في واقع الحياة، وكلها أمور تسبق الوصول إلى مرحلة العلم بتعريفه العام وحدّه الخاص.

ويعتبر هذا الكتاب محاولة جادة للكشف عن الرؤية الإسلامية أو المذهبية الإسلامية وتأسيسها وتأصيلها للجمال انطلاقاً من القيم الإسلامية في الكتاب والسنة والسيرة وحياة الصحابة.

وتأتي أهمية هذا الجهد المعرفي والثقافي من أن المكتبة الإسلامية بشكل عام ومجالات البحث في هذا الشأن لم تتوفر إلا على النذر اليسير وإلقاء

بعض الأضواء الخافتة التي لا تكاد تكشف عن المذهبية الإسلامية في مسألة الجمال، على الرغم من غنى القيم الإسلامية بالأصول الجمالية وتجلي ذلك بشكل واضح في الحياة والحضارة الإسلامية، حتى لتكاد تكون رؤية الجمال والإبداع في أساليبه ووسائله، ومشاهدة ذلك من أبرز ملامح الحضارة الإسلامية وتنوع عطائها.

لذلك فقد لا يكون مستغرباً، نتيجة للجهل بسبب قلة العطاء، أن يتهم الإسلام والمسلمون بالعداوة للفن والجمال، ولعل مرد ذلك الصورة الشائعة والمغلوطة عن الدين والمتدينين والزعم أنهم ضد الجمال واعتباره من المحرمات، وأنهم محرومون من رؤية الجمال وتذوقه، وأن بعضهم يتوهم أن التدين يرادف الخشونة والتجهم والعبوس والجفاء وتقطيب الوجه والاستمتاع بتعذيب النفس وحرمانها، وقد يعتبر بعضهم أن التدين والتكاليف الشرعية جنوح صوب الحرمان من متع الحياة وركوب المراكب الوعرة والسعي نحو المشقة، والتقعر في التعبير والقول، والتقطيب في الوجه، وامتشاق السيف، وممارسة القتل، والعزوف عن الدنيا!!

ولعل في ذلك قدر من الحق والكثير من التجني، ذلك أن الإسلام دين الفطرة بكل أبعادها، فطرة الله التي فطر الناس عليها، وأن دعوته للمسلم أن يكون كالشامة بين الناس، ملتزماً بآداب الطعام والشراب والاغتسال والزينة، وأن من تعاليم الإسلام أخذ الزينة عند كل مسجد، عند كل تجمع

إنساني ﴿...خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ (الأعراف:٣١)، واستنكار تحريم زينة الله التي أخرج لعبادة والطيبات من الرزق: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾ (الأعراف:٣٢)، واعتباره أن التبسم في وجه الأخ صدقة، وأن المشقة تجلب التيسير، وأن مع العسر يسراً، واستنكار الدين لفعل من حَرَم نفسه من متع الحياة وزينتها، من الامتناع عن النساء، والصوم الدائم، والامتناع عن الطعام، والقيام المديد، والامتناع عن النوم، وما أحله الله، وظن ذلك من الارتقاء بالعبادة... وغير ذلك كثير مما لا يتسع المجال للإتيان عليه، وإنما هي نوافذ للإطلالة منها على مذهبية الإسلام في الجمال وتقديره والدعوة إليه وممارسة تذوقه والنفاذ من الصور الجمالية إلى مبدعها وخالقها.

ولعل مرد تشكل هذه الصور المشوهة عن الدين والتدين تجاه الاستمتاع بالجمال وتنمية الإحساس به، هو ما انتهى إليه الفن المسمى بالجميل من الارتكاز إلى الغريزة والشهوة بدل الفطرة، وانتهاك الحرمات وممارسة العهر والإباحية والعري وتقديم الصور الفاضحة المنافية للفطرة باسم الفن والجمال!

ويبقى الكتاب محاولة -كما أسلفنا- للكشف عن الرؤية والمذهبية الإسلامية لفلسفة الجمال والتأسيس والتأصيل لمقوماته وسماته ومعالمه، بعيداً عن تأطيره وتقنينه ومحاصرته بالقوالب التي قد تفسد طبيعته وتحاصر آفاقه وتحويله إلى علم له حدّه وتعريفه وموضوعه.

فالجمال يتألق ويترقى كلما كان منطلقاً من الفطرة، ويصبح أكثر نطقاً ودلالة بقدر ما يحمل من معاني الخير وبما يستدعي من مديد النظر والتأمل والتعمق، للولوج إلى الفكرة والرسالة، التي تكمن وراء المنظر الجميل أو المظهر الجميل.

والجمال في الرؤية الإسلامية لا يقتصر على محاكات الإحساس وإثارة المشاعر والعواطف والأحاسيس وإنما ينفذ إلى تحريك العقل وملكات الإدراك التي تغري به، وترقى برسالته، وتصقل مرآته، وتنمي أدواته.

والله من وراء القصد، والحمد لله واهب الجمال ومبدعه.

مقدمة

يقول القاضي أبو بكر الباقلاني، رحمه الله:

«ومن أهم ما يجب على أهـــل دين الله كشفه، وأولى مـــا يلزم بحثه، ما كان لأصل دينهم قواما، ولقاعدة توحيدهم عماداً ونظاماً، وعلى صدق نبيهم ﷺ برهانا، ولــمعجزته ثبتا وحجة، لا سيما والجهــل مــمدود الرواق، شديد النفاق، مستول على الآفاق، والعلم إلى عفاء ودروس، وعلى خفاء وطموس، وأهله في جفوة الزمن البهيم يقـاسون من عبوســة لقــاء الأسد الشتيم، حتى صار ما يكابدونه قاطعا عن الواجب من سلوك مناهجه والأخذ في سبله، فالناس بين رجلين: ذاهب عن الحق ذاهل عــن الرشــد، وآخر مصدود عن نصرته مكدود في صنعته، فقد أدى ذلــك إلى خــوض الملحدين في أصول الدين وتشكيكهم أهل الضعف في كل يقين، وقد قــل أنصاره واشتغل عنه أعوانه وأسلمه أهله؛ فصار عرضة لمن شاء أن يتعــرض فيه، حتى عاد مثل الأمر الأول على ماخاضوا فيه عند ظهور أمره؛ فمن قائل قال: إنه سحر، وقائل يقول: إنه شعر، وآخر يقول: إنه أساطير الأولــين،

وقالوا لو نشاء لقلنا مثل هذا، إلى الوجوه التي حكى الله عز وجل عنهم أنهم قالوا فيه وتكلموا به فصرفوه إليه»[1].

رحم الله الباقلاني وأجزل له الجزاء، فقد كفانا بكلامه السابق مؤنة توصيف حال كثير من الدراسات التي تحسب نفسها خادمة للقرآن الكريم وهي أبعد ما تكون عن ذلك، لاشتغالها بقضايا علمية ونظرية، لا تؤهلها لتكون لأصل دين الله قواما، ولقاعدة توحيده عماداً ونظاماً، ولصدق نبيه ﷺ برهانا، ولمعجزته ثبتا وحجة. أما دراستنا الموسومة بـ«علم الجمال: رؤية في التأسيس القرآني»، فنزعم أنها مؤهلة لتحقيق مقدمات ذلك، على الأقل في الصورة التي تجتهد في تقديمها للقارئ الكريم بين دفتي هذا العدد من «كتاب الأمة» الأغر.

ومن أهم مكونات هاته الصورة، إظهار الأبعاد الجمالية المتنوعة للقرآن الكريم، المعلنِ منها والخفي، الظاهر منها والمضمر، الواضح منها والمستتر، خاصة والساحة الثقافية المعاصرة تشكو من غياب دراسات علمية ومنهجية متكاملة متخصصة في جماليات القرآن، وهو أمر يدعو للدهشة والاستغراب مع تنامي الدراسات القرآنية وتزايد الاهتمام العربي والدولي بالقرآن الكريم والدراسات المرتبطة به، ويزداد هذا الاستغراب عندما نعلم أن الثقافة العربية المعاصرة انفتحت في وقت مبكر على الثقافة الغربية وتابعت مستجداتها،

---

(١) أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق أحمد صقر (القاهرة: دار المعارف) ص٤.

خاصة تلك المرتبطة بـ«علم الجمال» وفلسفة الفن والأدب والنقد، ومن المفروض أن تهيئ هاته المتابعة الأرضية المنهجية والرؤية الفلسفية الكافية لإنضاج مشروع بل مشاريع فكرية تشتغل على النص القرآني مبرزة جمالياته وموضحة جوانب تميزها وأصالتها، مع التبشير بها في المنتديات العلمية والثقافية المحلية والعالمية، والترويج لها باعتبارها جماليات إنسانية عالمية، تلم شعث الفكر العالمي التائه، وتلملم جراح إنسان القرن الحادي والعشرين الهائم على وجهه، وتُرجع البشرية إلى رشدها، وتُقيمها على جادة الحكمة وفصل الخطاب.

إن كتابنا هذا، مساهمة جادة في هذا السبيل، وهي فضلا عن ذلك تسعى بجد لتقترح نفسها على المهتمين بالدراسات القرآنية، والعاملين في ميادين التربية والتعليم، والمنشغلين بهموم الإصلاح والتغيير، الرافعين لواءه بالقرآن وعلى طريقة القرآن وسنَنِ القرآن وهديه ومنهاجه. نقول ذلك وكلنا يقين في أن واقعنا المعاصر لفي مسيس الحاجة إلى تربية ذوقية فنية، ترهف حس المسلم بمواطن الجمال القرآني، وتوجه مسير الأمة لتمتح من القرآن وتربي الأجيال على تذوق جمالياته، لتنتقل بها إلى ساحة الفعل الراشد في الواقع، والتغيير السلمي السليم المقتفي أثر الرسول الكريم، الملتزم بسنته وهديه الشريف ﷺ.

إن الوصول إلى تصور متكامل لـ «علم الجمال الإسلامي» يحتاج منا إلى بيان واضح لماهية «الجمال» في القرآن الكريم، وتفصيل مستفيض

لتجلياته في واقع الناس وأنفسهم، واستقصاء شاف لمجالات هـذا الجمـال وأبعاده المختلفة، وتدقيق في المقاصد التي يستبطنها هذا الجمال ويستهدفها، دون إغفال لبيان الأسس المعرفية المؤطرة لهذا العلم، والكشف عن الملامح العامة للرؤية الجمالية القرآنية، التي نستشرف عبرها آفاق الجمال والجلال في كتاب الله تعالى.

تحقيقا لذلك، قسمت هاته الدراسة إلى أربعة فصول، خصصت الأول منها لاستـعراض المفاهيم القرآنية لـ«علم الجمال الإسلامي»، وحـددتها في مفهـوم «الجمـال» و«الزينة» و«الحسن» و«التسـوية»، لأخـلص إلى تحديد الرؤية الجمالية في القرآن الكريـم، عبر خلاصة تركيبية لهـا في الفصل الثاني.

وجاء الفصل الثالث من هاته الدراسة، ليبين ملامح «علـم الجمـال الإسلامي»، بين الهدي النبوي واجتهادات علماء الإسـلام، مـن خـلال الحديث عن الجمال في الهدي النبوي دعوة وتطبيقا (المبحث الأول)، وإظهار المقاربات التي تناول بها علماء الإسلام الجمال (المبحث الثاني).. أما الفصل الرابع، فقد أفردته للحديث عن الإشكالات المرتبطة بتقعيد وتأصيل علـم الجمال الإسلامي، وقد وسمته بـ: «علم الجمال الإسـلامي، مـساهمة في التأصيل والتجديد»، وقد اهتديت فيه بفضل الله وحسن توفيقه، إلى تحديـد ستة معالـم، رأيت أنها كفيلة بضبط هذا العلم وتأطيره ، تصورا وتطبيقا، أهدافا وغايات.

بقي أن أشير في هاته المقدمة إلى ثلاثة ضوابط، كانت من الهواجس الأساسية التي رافقتني في هذا البحث، وأُجمل الحديث عنها في النقط الآتية:

أ- تعمدت الإكثار من التساؤلات، بخلفية معرفية واضحة، وعملت على تنويعها وصياغتها بأساليب مختلفة من الطرح والتناول، ولم يكن ضروريا أن أجيب عنها كلها، فقد كان هدفي ومبتغاي في أحيان كثيرة؛ الوصول إلى نحت أسئلة تتضمن قضايا تستفز القارئ وتنبهه إلى مواطن منسية من التفكير والنظر، لإيماني بأهمية السؤال في إنتاج المعرفة؛ فكم فتحت لي هاته الأسئلة من فتوحات وبصائر ما كنت لأطل عليها لولا مفاتيح السؤال، التي ألهبت حماس الفكر وشحذت همة النظر لمواجهة عناد الأسئلة، خاصة ما عصي منها عن الحل، وما ند منها عن الفهم، وما تمنع منها عن إسلاس القياد.

ب- أعملتُ نظري النقدي في النصوص التي تعاملت معها، والأفكار التي تطرقت إليها، ولم أكن أسلم بكل ما أجده من أطاريح وأفكار، إلا بعد عرضها على مشرحة النظر والتأمل، ومقابلتها مع الأفكار التي تعارضها في المنهج وكيفيات الطرح والتناول. وقد بذلت جهدا غير يسير في الكشف عن المرجعيات والأصول الفكرية والفلسفية التي يصدر عنها أغلب من تعاملت معهم في هاته الدراسة، من العلماء والفقهاء والمفكرين، سواء كانوا من المدرسة العربية والإسلامية أو الغربية، وفي كل ذلك التزمت

مقاييس العلماء في التعديل والتجريح، فحفظت للعلماء حرمتهم، ورفضت بأدب ماترجح لدي خلافه من آرائهم وأقوالهم.

ج- اجتهدت في توثيق النصوص التي أستشهد بها، والإحالة على مصادرها، بما يتطلبه ذلك من الدقة والضبط، ولم أذكر في مسرد المصادر والمراجع كل المظان التي أحلت عليها في حواشي البحث، رغبة في عدم إثقاله بتفاصيل شكلية، لا تخدم الغرض منه، ولا تضيف كبير فائدة إليه.

لقد كان اعتمادي في هاته الدراسة كبيرا على كتب التفسير وعلوم القرآن، القديم منها والحديث، إضافة إلى مصنفات الحديث النبوي الشريف وكتب الإعجاز، فضلا عن كتب اللغة ومعاجمها المعتبرة، ودواوين الشعر العربي؛ التي كنت أتعقب فيها الرؤية الجمالية للعرب والمسلمين، لأنفتح على جديد «علم الجمال» في الثقافة العربية المعاصرة، مع دراسة الكتب التي تخصصت في «علم الجمال الإسلامي» وحاولت التنظير له.

لقد عكفت على دراسة هاته الكتب، وقلبتها من أوجه متعددة، واستوعبت مضامينها ومقترحاتها، وعملت على أن تكون دراستي هاته امتدادا لما أثلته من مواقف، ومشروع إجابة لما توقفت عنده من إشكالات وقضايا، وتتميماً لما أغفلَته أو سكتَتْ عنه من تطبيقات جمالية في القرآن الكريم، استفرغتُ وسعي في أن أكشف عن بعضها في هاته الدراسة بإذن الله وقوته.

تحقيقا لذلك، ألزمت نفسي بالمحافظة على مسافة فاصلة بيني وبين ما أطالعه من رؤى وأفكار وأطاريح، في مختلف المصادر والمراجع التي تعاملت معها، رغبة في أن يكون حضوري الشخصي قويا في ثنايا هاته الدراسة، فقد كنت أتعقب النصوص والأفهام، وأجوب التفاسير والمصنفات لأهتدي إلى فكرة، أو إلى جزئية في فكرة، أو إلى مشروع فكرة، وقد تطول الأيام ولا يجود الخاطر بشيء من النظر، وإذا جاد مرة يبس مداد الكتابة في يدي مرة أخرى، فإذا بي أهاب الإقدام على الصفحات البيضاء، فأعيد الكرة مرارا، وقد أمحو ما كتبت، بعد تقليب النظر فيه، وقد أصرف النظر بالكلية عن فصول بل أبواب كنت قد سودتها في التصميم، بعد أن بدا لي في منتصف المسير أن الأمر يقتضي تعديلا أو اختصارا أو دمجا أو حذفا، وفي هذا ما فيه من المعاناة والمكابدة، لكنها بحمد الله تهون بصحبة كتاب الله، فمن كان بإزاء هذا الكتاب، انقلب سهره فسحة، وتعبه راحة، وهمه فرحا، وعسره يسرا، ومعاناته رياضة ومتعة.

ذاك حالي أثناء كتابة هذا البحث، وتلك بعض سمات مرحلة أعتز فيها بالأنفاس التي قضيتها مع «جمالية التأثير القرآني»، في خلوة علمية ممتعة، أحتسبها لله تعالى، وأقدمها بين يديه سبحانه، عربون تذلل خاشع بين يدي جماله وجلاله سبحانه.

ثم إن الأمر لم يتوقف عند هذا التعب وذاك النصب، بل إنني وجدت نفسي في مواجهة مباشرة مع إشكال نظري ومعرفي مركب، يفرض علي

معالجة مضامين هاته الدراسة استنادا إلى مرجعيات ثلاث تتطلبها الطبيعة المعقدة لمثل هاته المواضيع، بدءا بالأدب والنقد والفن، ومرورا بالدراسات الإسلامية في انفتاحها على الدراسات الجمالية وعلم الجمال، وما يقتضيه ذلك من وقوف عند الأدب الإسلامي ومستجداته، وانتهاء بالفلسفة وإشكالاتها المرتبطة بفلسفة الجمال وخلفياته المعرفية المتنوعة، وهي كما لا يخفى قضايا نظرية صرفة، تتطلب استدعاء معارف فلسفية تمتح من مرجعيات فكرية متنوعة، وتصدر من مدارس واتجاهات مختلفة المشارب والموارد.

أعترف أن هذا الأمر شكل لي في البداية تحديا قويا، لم أتجاوزه إلا بصعوبة بالغة، وأرجو أن تكون هاته الدراسة إضافة مفيدة للساحة الثقافية العربية والإسلامية، التي تعاني من نقص مهول في الكتابات الجمالية، خاصة المتخصصة منها في علم الجمال الإسلامي وتطبيقاته القرآنية.

والله أسأل التوفيق والسداد، والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات.

الفصل الأول

علم الجمال.. ومفاهيمه القرآنية

تمهيد:

لا يسملك الباحث في القرآن الكريم إلا أن يندهش للاستعمال المكثف للألفاظ والمفاهيم الجمالية، استعمالٌ لم يأت على نمط واحد، ولم نلحظ في ترداده رتابة أو تكلفا، بل يأتي عذبا زلالا يصف المشاهد الجمالية بلغة مبينة، تعكس المقصود وتجليه، وتبلغ المراد في لبوس يجعل القارئ والمتأمل يسبح في عوالم روحية آية في الجمال، ويتذوق السياقات اللغوية في تنوعها البديع ورصفها المحبوك، فإذا هو مأخوذ قلبا وقالبا في مناجاة يرددها لسانه باللغة القرآنية الآسرة، ويجد رجع صداها هادرا في قلبه وروحه المنتشية بتتالي لوحات الجمال والجلال.

يجدر التنبيه أولاً إلى أن المنهج القرآني في استعراض المواضيع والقيم والصور الجمالية، جاء شاملا ومستوعبا، في انسجام تام وتناغم كامل مع طريقة القرآن في حديثه المفصل عن الكليات، المُجمل في الجزئيات والفروع، إلا إذا تعلق الأمر بشأن جلل كالإيمان بالغيب في العقائد، والصلاة في العبادات، والزواج والطلاق والإرث في الأحوال الشخصية، والربا والقروض في المعاملات المالية، والجهاد والحكم في قضايا تدبير شؤون الناس

في السياسة والقضاء. وإنه لأمر محير حقا أن نجد الوصف السابق ينطبق على موضوع الجمال في القرآن تـمام الانطباق، أستغفر الله، كيف يكون هـذا الأمر محيرا والكلام كلام من وصف نفسه بالجميل، بل هو منشئ الجمـال ومصدره ومسبغه على الموجودات، لكن عبارة الحيرة سبقت إلى السياق للوثة أُصيب بها أغلب المسلمين اليوم، هي تلك التي تحصر القرآن الكريم في كونه كتاب وعظ وإرشاد، وإخبار عن الغيب ليس إلا، في حين أنه بالإضافة إلى ذلك كتاب تشريع للأحكام، وديوانٌ للجمال ينبض بالحياة ويزخر بالوصف الرائق، والزينة التي يصعب وصفها على كل من هو في البيان حاذق.

ويجدر التنبيه ثانيا إلى أن الأسلوب القرآني يتميـز بتنويـع في الصيغ والمفاهيم الجمالية بشكل يخدم السياق الذي ينتظمها، وينسجم مع الإطـار العام الذي يؤطرها، ومن ثـمة فإن التعبير القرآني لا يبقى سجينا للفظـة «الجمال» في توصيفه للمواضيع والقيم والصور الجمالية، بل يوظف ألفاظـا أخرى تؤدي الأغراض المرادة منها.

إن تقليب النظر في آي الذكر الحكيم يقودنا إلى انتخاب مجموعة مـن المفاهيم[1]، هي في نظرنا الأكثر بروزا في المنظومة الجمالية للقرآن الكـريم، وسأعرض هاته المفاهيم وفق المطالب الآتية.

---

(١) يستعمل القرآن الكريم مجموعة متنوعة من المفاهيم الجمالية، بعضها صريح الدلالة على الجمال كالمفاهيم التي اخترتها في المطالب المكونة لهذا المبحـث: (الجمـال، الزينة، الحسن، التسوية، الفتنة، الزخرف) وبعضها الآخر -وهو الغالب- تفهم دلالته الجمالية من السياق، ولـم أشر إلى هذا النوع حرصا على الاختصار.

المبحث الأول

مفهوم «الجمال» في القرآن الكريم

وردت كلمة «الجمال» في كتاب الله عز وجل في ثمانية مواضع[1] كالآتي:

١- جاءت وصفاً للإبل في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (النحل:٦).

٢- وجاءت وصفاً للصبر في ثلاثة مواضع، في موضعين من سورة يوسف على لسان سيدنا يعقوب، عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف:١٨) ثم في قوله عز وجل: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ

---

(١) محمد زكي محمد خضر، المعجم المفهرس للتراكيب المتشابهة لفظا في القرآن الكريم، ٢/١٠٥؛ فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص ٢٢٥ وما بعدها.

﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (يوسف:٨٣)، وفي موضع ثالث في سورة المعارج: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ (المعارج:٥).

٣- ووردت وصفاً للصفح في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ (الحجر:٨٥).

٤- ووردت نعتا للتسريح في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (الأحزاب:٢٨)، ثم في قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (الأحزاب:٤٩).

٥- ووردت نعتا للهجر في سورة المزمل في قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ (المزمّل:١٠).

لا خلاف في أن العين هي الوسيلة الأكثر اشتراكا بين بني البشر في تملي الجمال وتذوقه، يستوي في ذلك العالم والجاهل، الفنان ذو الذائقة المرهفة والإنسان العادي الذي لا يأبه بالمشاهد الجميلة إلا إن بلغت حدا يملك عليه لبه وعقله، لذلك فالله تعالى يمتن على عباده جميعهم بأن خلق لهم من الكائنات ما به ينتفعون حسًّا ومعنى، فقال: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ

تُرِيحُونَ[1] وَحِينَ[2] تَسْرَحُونَ[3]﴾[4] (النحل:٥-٦)، فجمال هاته الإبـــل بـــاد للعيون في حالتي الغدو والرواح من وإلى المرعى، لكن التعبـــير القرآني قدَّم حـــالة الرواح على السراح للتنصيص على التفاتة جمالية مؤداها أن الأنعام

---

(١) أي حين «تردونها بالعشيّ من مسارحها إلى مراحها ومنازلها التي تأوي إليها ولذلك سمي المكان المراح، لأنها تراح إليه عشيا فتأوي إليه، يقال منه: أراح فلان ماشـــيته فهو يريحها إراحة»، تفسير الطبري، ١٦٩/١٧، و«الإراحـــة» كما قـــال الـــرازي، رحمه الله، في تفسيره: «رد الإبل بالعشي إلى مراحها حيث تأوي إليه لـــيلاً، يقـــال: سرح القوم إبلهم سرحاً إذا أخرجوها بالغداة إلى المرعى. قال أهل اللغة: هذه الإراحة أكثر ما تكون أيام الربيع إذا سقط الغيث وكثر الكلأ وخرجت العرب للنجعة ، وأحسن ما يكون النعم في ذلك الوقت». تفسير الرازي، ٣٥١/٩.

(٢) قال أبو البقاء العكبري: «و(حين) ظرف لجمال أو صفة له أو معمول فيها»، إملاء ما من به الرحمن، ٧٨/٢. وقرأ عكرمة، والضحاك ، و الجحـــدري، رحمهـــم الله: «حيناً» بتنوين الحـــيـــنـــيـــن أي «حينا تريحون وحينا تسرحون»؛ على أنَّ الجملـــة بعده صفة له، والعائد محذوف، أي: حيناً تريحون فيه وحيناً تسرحون فيـــه، كقولـــه: ﴿واتقوا يوماً تُرْجَعُونَ فيه﴾ (البقرة:١- ٢٨١)، تفسير اللباب لابن عـــادل، ٨٠/١٠؛ وتفسير هميان الزاد، ٦٤/٧.

(٣) أي «وفي وقت إخراجكموها غدوة من مُراحها إلى مسارحها، يقال : ســـرح فـــلان ماشيته يسرحها تسريحا، إذا أخرجها للرعي غدوة، وسرحت الماشـــية: إذا خرجـــت للمرعى تسرح سرحا وسروحا، فالسرح بالغداة ، والإراحة بالعـــشيّ، ومنـــه قـــول الشاعر: كأنَّ بقايا الأتْنِ فوقَ مُتونِه... مدبُّ الدَّبى فوقَ النَّقا وَهْـــوَ ســـارِحُ، تفـــسير الطبري، ١٦٩/١٧.

(٤) والضمير عائد إلى أشهر الأنعام عندهم وهي الإبل، التحرير والتنوير، ١٤/٨.

حالة رواحها إلى مباركها تكون أجمل وأنضر، وإلى هذا المعنى يشير السيوطي، رحمه الله، بقوله: «فإن الجَمال بالجِمال وإن كان ثابتاً حالتي السراح والإراحة إلا أنها حالة إراحتها وهو بجيئها من الرعي آخر النهار يكون الجمال بها أفخر، إذ هي فيه بطان، وحالة سراحها للرعي أول النهار يكون الجمال بها دون الأول إذ هي فيه خِمَاص»[1]، فالإبل بعد امتلاء بطونها بالطعام: «تكون أمَدَّه خواصر، وأعظمه ضروعًا، وأعلاه أسنمة»[2].

وعليه، فجمال الإبل في الرواح أكثر: «لأنها تُقبل ملأى البطون حافلة الضروع، ثم اجتمعت في الحظائر حاضرة لأهلها بخلاف التسريح، فإنها عند خروجها إلى المرعى تخرج جائعة عادمة اللبن ثم تأخذ في التفرق والانتشار، فظهر أن الجمال في الإراحة أكثر منه في التسريح؛ ووجه التجمل بها أن الراعي إذا روحها بالعشي وسرحها بالغداة تزينت عند تلك الإراحة، وتجاوب فيها الثغاء والرغاء، وفرحت أربابها وعظم وقعهم عند الناس بسبب كونهم مالكين لها»[3].

(١) الإتقان في علوم القرآن، ٢٤٥/١.
(٢) تفسير ابن كثير، ٥٥٧/٤.
(٣) تفسير الرازي، ٣٥١/٩ بتصرف.

إن المتبع لأغلب التفاسير التي وقفت عند الدلالات الجمالية لهاته الآية يجد أنها لا تخرج عن الدلالات نفسها التي أشار إليها الطبري[1]، والسيوطي

---

(١) قال الطبري، رحمه الله، في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾: «إذا رلحت كأعظم ما تكون أسنمة، وأحسن ما تكون ضروعا»، تفسير الطبري، ١٧/١٧٠.
وكذلك فعل البغوي في قوله: «وقدم الرواح لأن المنافع تؤخذ منها بعد الرواح، ومالكها يكون أعجب بها إذا رلحت». ينظر تفسير البغوي، ٥/٩ .
كما علل ابن الجوزي، رحمه الله، ذلك بأن الأنعام: «في حال الرواح تكون أجمل؛ لأنها قد رعت، وامتلأت ضروعها، وامتدت أسنمتها». ينظر: زاد المسير، ٤/٨٢.
ومثله فعل ابن عادل، رحمه الله، بقوله: «وقُـدِّمت الإراحة على السرح؛ لأنَّ الأنعام فيها أجمل لملء بطونها وتحفُّل ضروعها ، بخلاف التسريح؛ فإنها عند خروجها إلى المرعى تخرج جائعة عادمة اللَّبن ثم تتفرق وتنتشر». ابن عادل، تفسير اللباب، ١٠/٨٠.
أما النسفي، رحمه الله، فيرى أن الله تعالى مَـنَّ بالتجمل بالأنعام: «كما منّ بالانتفاع بها لأنه من أغراض أصحاب المواشي لأن الرعيان إذا روحوها بالعشي وسرحوها بالغداة تزينت بإراحتها وتسريحها الأفنية، وفرحت أربابها وأكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس، وإنما قدمت الإراحة على التسريح لأن الجمال في الإراحة أظهر إذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع»، تفسير النسفي، ٢/١٥١. ويؤكد هذا المعنى «الماوردي»، رحمه الله، في تفسيره اللطيف «النكت والعيون» بقوله: «وقد قدم الرواح على السراح وإن كان بعده لتكامل درها ولأن النفس به أسرُّ». تفسير النكت والعيون، ٢/٣٦٥، أو لأن مُلاكها: «يعظمون في أعين الناظرين إليها وتستحلي القلوب أصواتها، وقد مَنَّ الله عليهم بكونها جمالا كما مَنَّ بكونها نفعاً لأن الجاه والحرمة يحصلان بها لهم» «تفسير هميان الزاد «لمحمد بن يوسف بن عيسى بن صالح الوهبي، الإباضي (ت١٣٣٢هـ) ٧/١٦٤؛ كما أن: «الأفنية والمشارع والطرق تتزين بها في الذهاب والرواح، ويَجِلُّ أهلها في أعين الناظرين إليها، وقدّم الإراحة لأن الجمال فيها أظهر»، ابن عجيبة، البحر المديد، ٣/٢٤٧.

وابن كثير والرازي، رحمهم الله، بل إن عبارات المفسرين، رحمهم الله، تكاد تتطابق في الصياغة والمعنى، مع بعض الإضافات المهمة التي نلفيها منثورة في هذا السفر أو ذاك.

ويرى بعض المفسرين أن «الجمال» ليس ضروريا لحياة الإنسان، ويستشهدون بقوله تعالى:

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۚ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾ (النحل:٥-٦)، ويرون أن الله تعالى بدأ بذكر ما هو ضروري لحياة الإنسان مثل استفادته من صوف الأنعام للباسه، ولحمها لأكله، ولبنها لشربه، ثم بعد ذلك نبه على ما ليس ضروريا، وعنوا به جمال الأنعام وحسن منظرها.

يعد «ابن عادل»[١] من أبرز من قال بهذا الفهم في تفسيره «اللباب»، يقول، رحمه الله، موضحا وجهة نظره: «ولما ذكر الأنعام، أتبعه بذكر المنافع المقصودة منها، وهي إما ضرورية، أو غير ضرورية، فبدأ بذكر المنافع الضرورية؛ فقال : ﴿لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ﴾ وقد ذكر هذا المعنى في آية أخرى، فقال سبحانه:

---

(١) هو أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى:٧٧٥هـ).

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾ (النحل: ٨٠)، والمعنى: ملابسُ ولحفاءُ يستدفئون بها، ثم قال: ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾، والمراد ما تقدم من نسلها ودرِّها. ثم قال: ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾، وأمَّا المنافع غير الضرورية الحاصلة من الأنعام فأمورٌ، وعَدَّ منها قوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ﴾»[1].

إن هذا القول يبدو في نظرنا متهافتا بالنظر إلى ما قدمناه وإلى ما سيأتي بيانه من احتفاء ملحوظ للقرآن الكريم بالجمال، احتفاء يبوئه مقام الحاجة الضرورية لا التحسينية للإنسان، يضاف إلى ذلك أمور نجملها في الآتي:

- أولاً: قلة من قال بقول «ابن عادل» من العلماء والمفسرين كما سيأتي، وعلى القول بوجودهم فعددهم غير معتبر بالنسبة إلى غيرهم من المفسرين المعتبرة أقوالهم والمشهود لها بالاعتبار.

- ذَكَرت الآية «الجمال» بين عدة ضرورات، فتحدثت عن فوائد الأنعام من لباس وطعام وشراب، ثم أشارت إلى جمالها لتستأنف الحديث عن بقية الفوائد التي اعتبرها «ابن عادل» ضرورية، وهي المتمثلة في حملها

---

(١) تفسير اللباب، ١٠/٨٠.

للأثقال والتخفيف من وعثاء السفر ومشاقه. فيكون الجمال بهذا الاعتبار ضرورة لذكره محصورا بين ضرورات أخرى، والأكيد أنه لو لم يكن منها لما ذكره التعبير القرآني ضمن هذا السياق ووفق هذا النسق الدال والمعبر، وعليه يكون القائل بخلاف هذا القول مخالفا للنص القرآني في كونه لا يُخضع المفاهيم والمعاني التي يتضمنها لترتيب منطقي مقصود ومراد، وهذا ما لا يقول به أحد.

- كثرة الشواهد والنصوص القرآنية التي تؤكد أن الجمال مطلب أساسي لحياة الإنسان، بل هو وسيلته للتعرف على جلال الله وعظمته، وبنسبتها تعظم الأشياء وتشرف، وإذا كانت معرفة الله ضرورية، فطبيعي أن يكون كل ما يؤدي إليها أو يساعد عليها ولو بمثقال ذرة، ضروريا ومؤكدا.

مع ذلك، وجب التنبيه على هذا الحضور القوي للحس الجمالي عند المفسرين في تناولهم لهاته الآية، يدل على ذلك استعمالهم المكثف للمفاهيم ذات الدلالة الجمالية البارزة[1] بمعنى أنهم لم يقفوا عند عتبة الكلمات ومعانيها، بل تعدوها للكشف عن التجليات الجمالية التي تسكن خلفها

(١) من ذلك قول ابن عباس: «﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ أي منظر حسن ﴿حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾، تنوير المقباس، ١/٢٨٠؛ وقول السمرقندي: «﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ أي: ولكم يا بني آدم في الأنعام ، جمال حسن المنظر»، بحر العلوم للسمرقندي، ٢/٤٥٧؛ وقول ابن عاشور: «فامتنّ بمنافعها وبحسن منظرها»، التحرير والتنوير، ١٤/٢٨؛ وقول الجزائري: «﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ فهذه لذة روحية ببهجة المنظر» أيسر التفاسير للجزائري، ٢/٢٨٩؛ وتنظر أيضا الاستشهادات التي أوردناها في الهامش السابق.

في مسعى نعتبره متقدما بالنظر إلى الفترة الزمنية التي أطّرت فهمهم للجمال وتجلياته.

لبيان ذلك نورد مثالا لتفسيرين تفصل بينهما مسافة زمنية تقارب سبعة قرون، كلا التفسيرين وقف عند الآية نفسها التي نحن بصدد تجلية مضامينها الجمالية، فانقدحت في نفسي صاحبيهما آثار الجمال، فراحا يدونانها مؤكدين تكامل الذوق بين السلف والخلف على الرغم من بعد الشقة الزمنية وما يستتبعه من تغيرات في الأذواق والأفهام.

- التفسير الأول، للعلامة القرطبي، رحمه الله (ت٦٧١هـ)[1]، قال في تفسيره لقوله تعالى:

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ (النحل:٦):

«قال علماؤنا: فالجمال يكون في الصورة وتركيب الخِلقة، ويكون في الأخلاق الباطنة، ويكون في الأفعال؛ فأما جمال الخلقة فهو أمر يدركه البصر ويلقيه إلى القلب متلائما، فتتعلق به النفس من غير معرفة بوجه ذلك ولا نسبته لأحد من البشر.

وأما جمال الأخلاق فكونها على الصفات المحمودة من العلم والحكمة والعدل والعفة، وكظم الغيظ وإرادة الخير لكل أحد. وأما جمال الأفعال فهو وجودها ملائمة لمصالح الخلق وقاضية لجلب المنافع فيهم وصرف الشر

(١) تنظر ترجمته في: الزركلي، الأعلام، ٥٥٢/٢.

عنهم. وجمال الأنعام[1] والدواب من جمال الخلقة، وهو مرئـــي بالأبـــصار

(١) اجتهد الرازي، رحمه الله، في بيان الأسباب التي جعلت التعبير القرآني يحتفي بالأنعام ويصفها بالجميلة، وخلـــص إلى أن ذلك راجع إلى خصال لا تجتمع إلا في هذا النوع من الدواب، وهذه الخصال هي المذكورة تباعا في قولـه تعـالى فـي سـورة «يـس» (الآيتان:٧١-٧٢): «﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾، وفـي قولـه سـبحانه فـي سـورة النحل(الآيتان:٥-٧): ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ﴾، ثم يعلق تعليقا مستفيضا، نورده هنا على الرغم من طوله لأنه يخدم الغـرض الذي نحن بصدده بقوة، يقول، رحمه الله: «وإن شيئاً من سائر الحيوانات لا يجتمع فيه هذه الخصال فكان اجتماع هذه الخصال فيه من العجائب، إضافة إلى أنه في كل واحد من هذه الخصال أفضل من الحيوان الذي لا يوجد فيه إلا تلك الخصلة لأنها إن جعلت حلوبة سقت فأروت الكثير، وإن جعلت أكولة أطعمت وأشبعت الكثير، وإن جعلت ركوبة أمكن أن يقطع بها من المسافات المديدة ما لا يمكن قطعه بحيوان آخر، وذلك لما رُكّـب فيها من قـوة احتمال المداومة على السير والصبر على العطش والاجتزاء من العلوفات بما لا يجتزىء حيوان آخر، وإن جعلت حملة استغلت بحمل الأحمال الثقيلة التي لا يستقل بهـا سـواها، ومنها أن هذا الحيوان كان أعظم الحيوانات وقعاً في قلوب العرب ولذلك فإنهم جعلوا دية قتل الإنسان إبلاً، وكان الواحد من ملوكهم إذا أراد المبالغة في إعطاء الشاعر الذي جاءه من المكان البعيد أعطاه مائة بعير، لأن امتلاء العين منه أشد من امتلاء العين من غيره، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (النحل:٦) ومنها أني كنت مع جماعة في مفازة فضللنا الطريق فقدموا جملاً وتبعوه فكان ذلك الجمل ينعطف من تل إلى تل ومن جانب إلى جانب والجميع كانوا يتبعونه حتى وصل إلى الطريق بعد زمان طويل فتعجبنا من قوة تخيل ذلك بالحيوان أنه بالمرة الواحدة كيف انحفظت فـي خيالـه صورة تلك المعاطف حتى إن الذين عجز جمع من العقلاء عن الاهتداء إليه، فـإن ذلـك الحيوان اهتدى إليه، ومنها أنها مع كونها في غاية القوة على العمل مباينة لغيرهـا فـي الانقياد والطاعة لأضعف الحيوانات كالصبي الصغير، ومباينة لغيرها أيضاً في أنها يحمل عليها وهي باركة ثم تقوم، فهذه الصفات الكثيرة الموجودة فيها توجب على العاقل أن ينظر في خلقتها وتركيبها ويستدل بذلك على وجود الصانع الحكيم سبحانه، ثم إن العرب مـن أعرف الناس بأحوال الإبل في صحتها وسقمها ومنافعها ومضارها فلهذه الأسباب حسن من الحكيم تعالى أن يأمر بالتأمل في خلقتها»، تفسير الرازي، ٤٩٣/١٦.

موافق للبصائر. ومن جمالها كثرتها وقول الناس إذا رأوها: هذه نعم فلان، ولأنها إذا راحت توفر حسنها وعظم شأنها وتعلقت القلوب بها، لأنها إذ ذاك أعظم ما تكون أسنمة وضروعا. ولهذا المعنى قدم الرواح على السراح لتكامل درها وسرور النفس بها إذ ذاك والله أعلم»[1]، وقد استثمر، رحمه الله، في كلامه هذا أقوال المفسرين المتقدمين عليه.

- أما التفسير الثاني فهو للشهيد سيد قطب، وفيه يرى، رحمه الله، أن الجمال المقصود في الآية هو جمال الاستمتاع بمنظر الإبل فارهة رائعة صحيحة سمينة، سواء في حالة الغدو أو الرواح، ويرى، رحمه الله، أن أهل الريف أقدر على إدراك هذا الجمال: «بأعماق نفوسهم ومشاعرهم أكثر مما يدركه أهل المدينة»[2]، ليعقب قائلا: «وهذه اللفتة لها قيمتها في بيان نظرة القرآن ونظرة الإسلام للحياة. فالجمال عنصر أصيل في هذه النظرة وليست النعمة هي مجرد تلبية الضرورات من طعام وشراب وركوب؛ بل تلبية الأشواق الزائدة على الضرورات، تلبية حاسة الجمال ووجدان الفرح والشعور الإنساني المرتفع على ميل الحيوان وحاجة الحيوان»[3]، وهذا فهم رائد للآية قصر عنه المتقدمون.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٠/٧٠-٧١، بتصرف.
(٢) في ظلال القرآن، ٤/٤٥٥.
(٣) في ظلال القرآن، ٤/٤٥٥.

إن مشاهد الجمال لا تنحصر في الأنعام، ليقيننا أن التعبير القرآني قدمها في الذكر لحميميتها عند الإنسان العربي في شبه الجزيرة العربية، ولارتباطه الدائم بها في حله وترحاله، فكانت دعوة القرآن لتملي الجمال واكتشافه تنطلق من أقرب الأشياء إلى الإنسان وأكثرها التصاقا به، ومن ثم دعوته لإعمال فكره وذوقه في هذا الكون المليء بالمشاهد الجميلة بدءا من نفسه ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ مرورا بما حوله من مخلوقات، عددها القرآن الكريم في مواضع كثيرة، و منها أنعامٌ اعتبر تسخيرها وجمالها من رحمة الله بالإنسان، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، ثم فتحت آفاق الجمال على مصراعيها حتى لا تبقى محصورة في صنف بعينه، فقال سبحانه مباشرة بعد هذه الآية: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ﴾، وهنا مرة أخرى نلمح هذا التنصيص على التوصيف الجمالي بقوله عز وجل: ﴿وَزِينَةً﴾، بل إن النص القرآني لا يكتفي بهذا القدر من توسيع المدارك وفتح الأبواب أمام الإنسان لارتياد مظان جديدة للجمال ومعرفة موارده، بل يلمح في رمزية شفافة إلى أن هاته الموارد وتلك المظان لا تنتهي: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، في سياق يسمح لنا بالقول: إن المعنى المقصود من الآية -لأن السياق يتحمله - أن الله تعالى مستمر (فعل المضارع «يخلق» الدال على الاستمرار والتجدد) في خلق ما لا نعلم من المشاهد والمخلوقات بل والمواقف والآيات الجميلة التي نحن مدعوون لتأملها على الدوام، فإذا كان الخالق مستمرا في هذا الإبداع، فالإنسان – باعتباره مكلفا– ملزم

باستصحاب هذا الإبداع والخلق الإلهي المبدع باكتشافه وتدبره، حتى تبقى جذوة الإيمان مشتعلة، وتتوثق المحبة لهذا الخالق بتوثق الصلة بالأشياء الجميلة التي تفاجئ الإنسان بين الفينة والأخرى في مسيرة حياته، مسيرة يمكن اختصارها بكونها فترة لإماطة اللثام عن جمال الكون رغبة في التقرب من مبدعه ومنشئه، باعتبارها خطوة أولى وأساسية لاكتشاف الجمال الحقيقي في الآخرة التي فيها: «**مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»[1]، بهذا الشكل يكون تذوق الجمال الدنيوي والاستمتاع به مقدمة ضرورية لطلب الجمال الأخروي الخالد، وبذلك نكون قد وضعنا اليد على ملمح مهم من ملامح التصور الجمالي القرآني الذي يجعل المطلب الجمالي موصولا بين الدنيا والآخرة.

كأني بالآية الكريمة تنادي الإنسان وتستحثه أن: لا تقفْ عند هذا المستوى من إدراك الجمال في ما حولك من دواب وهوام، فهناك مجالات أرحب وأوعب، ارتدْها، ابحثْ عنها، وتمتع بها، ففيها وبها الهداية التي تنشدها وتبحث عنها.

من هاته المجالات ما يرتبط بشعور الإنسان وإحساسه في المواقف التي تفرضها عليه مكابدته للمعاش، ومعافسته للأهل وكده في سبيل توفير عيش كريم لوُلده، ومنها ما يرتبط بعلاقاته، ومخالطته لبني جنسه في الكسب

---

(١) أخرجه الإمام مسلم، ١٤٣/٨، الحديث رقم ٧٢٣٧؛ والإمام أحمد، ٣٣٤/٥، الحديث رقم ٢٣٢١٤.

والنسب والمصاهرة وشتى صنوف التعامل المادي والمعنوي. وهذا ما يصوره التعبير القرآني بشكل بديع في المواقف التالية:

الموقف الأول لنبينا محمد ﷺ، وفيه نلفي حبيب الله في مشاهد مختلفة تهيمن عليها أجواء الحزن بما جنت أيدي الناس وكسبت أفعالهم القبيحة. في المشاهد جميعها لا مفر لنبي الله إلا أن يلوذ بالصبر الجميل والتسريح الجميل والهجر الجميل والصفح الجميل.

إن الإصرار على إضافة الجميل إلى عبارات الصبر والتسريح والهجر والصفح له أكثر من دلالة، يكفينا منها هنا أن الجمال إذا أضيف إلى أي شيء مهما كانت حدة خطورته يلين و يخف، فإذا الموقف الانفعالي المتوتر غير خارج عن السيطرة، وإذا كيد القريب والبعيد ينقلب عليه، وإذا تدبير العدو يتحول إلى نصر وتأييد، وإذا عدم رد الفعل يكون أجدى وأنفع من رد الفعل:

﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ (فصلت:٣٤).

يهدينا هذا المعنى إلى القول: إننا إذا ضبطنا تصرفاتنا ومواقفنا وانفعالاتنا وجعلناها خاضعة لمؤشر الجمال، فإنه سيحولها من السلب إلى الإيجاب، من الدمار إلى البناء، من التشتيت إلى التجميع، فإذا الهجر باعتباره موقفا انفعاليا يدل على السخط والتذمر، ينقلب آلية للصلح ووسيلة لا غنى عنها لتقويم أي اعوجاج في سلوك الزوجة الناشز، وإذا التسريح باعتباره دعوة للفراق

وتشتيتا للشمل، يصير أداة لاتقاء الأسوأ وتجنب الفادح من التصرفات والأقوال التي تنجم عادة عن الجمع القسري لزوجين غير منسجمين، لا مودة تجمعهما، ولا رحمة تطيل حبل عشرتهما. وإذا الصبر الذي ينزل على النفس ثقيلا، ثقالة السبب الذي أنشأه، يتحول إلى منهج لاستيعاب الصدمة بغية استدماجها كشرط ضروري لتجاوزها والانتصار على تبعاتها القاتلة، وإذا العفو الذي يُظن أنه صادر عن ذات ضعيفة لم تقدر أن تنتصف لنفسها ينقلب أداة لتوبيخ الآخر وإيلامه لدرجة إكراهه معنويا على طلب العفو والمغفرة.

هاته المعاني تتجلى بوضوح في مشاهد مختلفة يُطلب فيها من رسول الله ﷺ الصفح[1] تارة: ﴿... وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

---

(١) قال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: «الصفح الجميل هو الرضا بغير عتاب»، وقال سهل: «بلا حقد ولا توبيخ بعد الصفح»، تفسير التستري، ٢٦٥/١؛ وقال ابن بحر: «هو صفح المنكر عليهم بكفرهم، المقيم على وعظهم» (النكت والعيون، ٣٥٩/٢). وقيل: «الصفح الجميل مواساة المذنب برفع الخجل عنه ومداواة موضع آلام الندم في قلبه»، تفسير الألوسي، ٨/١٠، وهو أيضا :« الإعراض الخالي من الجزع والفُحش»، زاد المسير، ٧٢/٤، أو: «احتمال الإعراض بحلم وإغضاء»، تفسير الرازي، ٣٣٠/٩؛ ويقال: «الصفح الجميل هو سحبُ ذيل الكَرَم على ما كان مِنْ غير عقْدِ الزلّة، بلا ذكْرٍ لما سَلَفَ من الذنب»، كما يقال: «الصفح الجميل الاعتذار عن الجُرْم بلا عدّ الذنوب من المجرم، والإقرار بأن الذنب كان منك لا من العاصي»، تفسير القشيري، ١٠٤/٤.

﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾[1] (الحجر:٨٥)، والصبر أخرى:

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ (المزمل:١٠)، ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ (المعارج:٥)، ويوجهه تارة أخرى عند تخيير أزواجه أن يسرحهن سراحا جميلا إن هن اخترن الدنيا وزخرفها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) (الحجر:١٥-٨٥)، إن تقليب النظر في التفاسير المختلفة لهاته الآية يجعلنا نستغرب من المسعى الذي سار عليه بعض المفسرين، إذ يذكرون أن هاته الآية الكريمة نسخت بآية السيف، ومنطوق هذا الكلام يعني أن ﴿الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ المذكور في الآية لم يعد معتمدا كآلية من آليات التعامل بين الدولة الإسلامية وغيرها من الدول، وعليه فالصوت الوحيد الذي يعلو في علاقات الدولة الإسلامية هو صوت السيف. ومعلوم أن هذا الكلام غير معتبر بالنظر إلى أبسط الأبجديات المنظمة لعلاقات الدولة الإسلامية بغيرها في حالتي الحرب والسلم ، لذلك نستطيع أن نقرر بهدوء أن ﴿الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ هو الأصل الذي سارت عليه الدولة الإسلامية في علاقاتها مع غيرها، يشهد لذلك مختلف الممارسات التاريخية عبر العصور السالفة، وهو الأمر الذي يتوافق والشواهد القرآنية والحديثية المختلفة التي تشهد لهذا الأصل بالاعتبار.
ونستطيع هنا أن نظفر بإشارة لطيفة تخدم المعنى الذي ألمحنا إليه، في تفسير ينتمي إلى المدرسة الإباضية، وفيه تنصيص واضح على أن قوله تعالى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ لم ينسخ بآية السيف، يقول «أطفيش» في تفسيره لهاته الآية: «﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾: «أي فأعرض يامحمد عن قومك الإعراض الذي لا جزع فيه، وتحمل أذاهم ولا تعجل بالانتقام منهم» ثم يضيف :«وهذا أمر حسن يؤمر به ويرغب فيه ولو أمر بالقتال، فلا حاجة إلى قول بعض المفسرين أنه منسوخ بآية السيف إذ لا دليل على أنه نُهِيَ عن قتالهم»، تفسير هميان الزاد إلى دار المعاد، ٤٢/٧، ويعلق بعد ذلك قائلا: «ولأخطأ من قال في مثل هذا أنه منسوخ بآية السيف لأن هذا مأمور به أبدا قبل نزول القتال وبعده»، تفسير هميان الزاد، ٥٢/٥.

ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ (الأحزاب:٢٨)، كما يؤمر عامة المؤمنين بسلوك السبيل نفسه عند تطليق النساء دون الدخول بهن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ (الأحزاب:٤٩).

- الموقف الثاني لنبي الله يعقوب، عليه السلام، الذي ابتُلي ببلاء لا يخفف من وقعه الشديد إلا التحلي بالصبر الجميل، فقد فَقَدَ أعز أبنائه وأقربهم منزلة إلى قلبه: نبي الله يوسف، عليه السلام. فما كان من الأب المكلوم إلا أن فوض أمره إلى الله وقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (يوسف:١٨)[1]، فصار قوله هذا يتردد في كل المواقف الشبيهة التي لا تنفع فيها الحيلة ولا البيان، لذلك أُثِرَ عن أمنا عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت في حادثة الإفك: «إني والله قد عرفت أن قد سمعتم بهذا (أي اتهامها بالزنا)، حتى استقرَّ في أنفسكم، حتى كدتم أن تصدِّقوا به، فإن قلت لكم: إني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدّقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني منه بريئة

(١) ذكرت هاته الآية بالصيغة نفسها في موضعين من سورة يوسف في الآية:١٨ التي ذكرت في المتن أعلاه والآية (٨٣) التي يقول فيها الحق سبحانه: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

لتصدقني، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلا إلا كما قال أبـــو يوســـف[1]: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾»[2].

إن وصف الصبر ووسمه بسمة الجمال فيه أكثر من دلالـــة، إذ الـــصبر الذي يستحق أن يوصف بالجميل هو صبر «ليس فيه جزع »[3]، ويكـــون ذلك بـــــ: «السكون إلى موارد القضاء سراً وعلناً»[4]، كما قال الألوسي، رحمه الله، أو بـــــ: «تلقي البلاء بقلب رحيب ووجه مستبـــشر »[5]، وفي هاته الحالة: «يُلقِي العبد عنانه إلى مولاه ويسلم إليه نفسه مع حقيقة المعرفة، فإذا جاء حُكم من أحـــكامه ثبت له مســـلماً، ولا يُظْهِرُ لوروده جزعـــاً ولا يُرَى لذلك مغتـــماً»، كما قـــال الترمـــذي، رحمه الله[6]، ويروى أن النبي ﷺ سئل عن الصبر الجميل فقال: «**هو الذي لا شكوى معه**»[7]، لأن

---

(١) تشير كتب السير والتفاسير التي أوردت القصة أن عائشة، رضـــي الله عنهـــا، لـــم تستطع أن تتذكر اسم نبي الله يعقوب، للحالة النفسية التي كانت عليها. (تنظر روايات هاته القصة في: «مرويات غزوة بني المصطلق»، إبراهيم بن إبراهيم قريبي، نـــشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.

(٢) تفسير الطبري، ١٢٣/١٩.

(٣) هذا القول منسوب إلى مجاهد، رحمه الله، وقد أورده الطبري فـــي تفـــسيره، ٥٨٤/١٥، ومنه قول الشاعر أوس بن حجر:

أيتها النفس أجملي جزعا　　　إن الذي تحذرين قد وقعا.

(٤) روح المعاني، ١٦٤/٩.

(٥) روح المعاني، ١٦٤/٩، بتصرف يسير.

(٦) روح المعاني، ١٦٤/٩، بتصرف يسير.

(٧) تفسير القرطبي، ١٥١/٩. وذكر ابن عادل في تفسيره أن الرسول ﷺ أجاب السائل بقوله: «صَبْرٌ لا شَكْوَى فيه، فمَنْ بثَّ لمْ يَصْبِرْ»، تفسير اللباب، ٢٢٩/٩، هـــذا ولـــم أقف على أي من الصيغتين في كتب الحديث المعتبرة.

حالة التحمل بالصبر تحول بين الإنسان والشكوى، فإذا هو راض بالقدر في غير ما جزع ، متحملٌ للبلوى دون تذمر أو تأفف، قال الثوريُّ، رحمه الله: «من الصَّبْر ألاّ تُحدِّثَ بوجعك، ولا بـمُصيبتكَ»[1]، فما الفائدة من التشكي إذا لم يأت بنتيجة؟:

وَمَن جَرَّبَ الشَكوى فَلَم يَجنِ طائِلاً

أَقَرَّ عَلى الصبرِ الجَميلِ قَرارَهْ[2]

بهذا المعنى، يحول التعبير القرآني مفهوم «الصبر» من اعتباره مجالا للمعاناة والقسوة، وإطارا لتدمير الذات وإفناء الإرادة، إلى مجال جمالي يسلي به الإنسان عن أحزانه، ويخفف به من وطأة المشاكل التي تجثم على صدره. بل إن الصبر الجميل يتحول إلى وسيلة تربوية مهمة في التأثير، تجعل المؤمن في تماس حقيقي مع إيمانه، واختبار فعلي لمدى صدقه في الخسوف من الله والرجاء فيه، يتحقق ذلك ويتعمق في نفسه عندما يرى أن الصبر الجميل في بعده التربوي لا يخرج عن الدلالات الثلاث الآتية:

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل، ٢٢٩/٩.

(٢) هذا البيت لإبراهيم اليازجي (١٢٦٤-١٣٢٤هـ/١٨٤٧-١٩٠٦م) كان من الطراز الأول في كتاب عصره، أصدر مجلة البيان ثم مجلة الضياء وتولى تحرير جريدة النجاح سنة ١٨٧٢م. من كتبه: كتاب (نجعة الرائد في المترادف والمتوارد) وهو في جزأين ومازال الثالث مخطوطاً و(الفرائد الحسان من قلائد اللسان) وهو عبارة عن معجم في اللغة.

الدلالة الأولى: يكون صبر المؤمن على البلاء جميلا: «إذا عــرف أن مُنَزِّلَ ذلك البـــلاء هو الله تعـــالى، ثم يعلم أن الله سبحـــانه مالك الملك، ولا اعتراض على المالك في أن يتصرف في ملك نفسه، فيصير استغراق قلبه في هذا المقام مانعاً له من إظهار الشكاية»[1].

الدلالة الثانية: يتحقق الجمال في صبر العبد على البلاء إذا علم: «أن مُنَزِّلَ هذا البلاء، حكيم لا يجهـــل، وعالـــم لا يغفل، عليم لا ينسى رحيم لا يطغى، وإذا كان كذلك، فكان كل ما صدر عنه حكمة وصواباً، فعنـــد ذلك يسكت ولا يعترض»[2].

الدلالة الثالثـــة: يتجـــلى الصبر الجميل للمـــؤمن عندما يتيقن أن هذا البلاء من الحق سبحانه، فيستغرق في مشاهدة نور الـــمُبْلِـــي، استغراقا يمنعه من الاشتغـــال بالشـــكاية عن البلاء، ولذلك قيل: «الـــمحبة التامة لا تزداد بالوفاء ولا تنقص بالجفـــاء، لأنها لـــو ازدادت بالوفـــاء لكـــان الـــمحبوب هو النصيب والحظ، وموصل النصيب لا يكون محبوباً بالـــذات بل بالعرض»[3].

عند هذا المستوى، تصير الحدود بين الصبر والصابر ضيقة، بـــل إنها تنمحي ليحدث التماهي بينهما فإذا هما سيان:

---

(١) تفسير الرازي، ١١/٩.
(٢) المصدر نفسه، ١١/٩.
(٣) المصدر نفسه، ١١/٩.

عَبَراتٌ خططنَ في الخدِّ سطــرا   قد قَراها من ليس يُحسِن يَقرا
إنّ موتَ المحب من أَلَمِ الشــــو   قِ وخوفِ الفِراقِ يُورث عُذرا
صابَرَ الصبرَ فاستغاث به الصبــ   ــرُ فصاحَ المحبُّ بالصبرِ صبرا[1]

إن هذا المعنى اللطيف الذي عبر عنه «الشبلي» يكشف لنا عن ملمــح جمالي آخر في «الصبر الجميل»، وهو المتمثل في الطاقات المعنوية التي يُكسبها للمتحلي به، فإذ إرادته بعد الكلل قوية، وإذا همته بعد الفتور يقظــة، وإذا العــزم منه لايعرف للعجــز معــنى، ولا للهــوان مغنى. لكن مع ذلك، ألا يــمكن الحديث عن «صبر قبيح»؟

الجــواب: نعم «إذا كان الصبر ليس لأجل الرضــا بقــضاء الحــق سبحانه، بل كان لسائر الأغراض»[2]، لذلك قال يعقوب، عليه الســلام: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾» (يوسف:١٨) مباشرة بعــد قولــه: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، في إشارة إلى أن الصبر لايكون جميلا إلا في مرضاة الله، ولا يكون كذلك إلا إذا أعان الله المؤمن على هذا الفهم ووجهه إليه وأعطاه الطاقة الكافية على التحمل والصبر: «وذلك لأن الدواعي النفسانية تدعو إلى إظهار الجزع وهي قوية، والدواعي الروحانية تدعو إلى الصبر الجميل، فكأنه

(١) هاته الأبيات لأبي بكر الشبلي (٢٤٧-٣٣٤ هـ/٨٦١-٩٤٦م)، له شعر جيد، سـلك به مسالك المتصوفة، أصله من خراسان، ونسبته إلى قرية (شبلة) من قرى مـا وراء النهر، اشتهر بكنيته، قام الدكتور كامل مصطفى الشيـبي بتجميع ما وجد من شـعره في ديوان يحمل اسمه: (ديوان أبي بكر الشبلي).
(٢) تفسير الرازي، ١١/٩.

وقعت المحاربة بين الصفتين (أي صفة الجزع والصبر الجميل)، فما لم تحصل المعونة منه جل وعلا لا تحصل الغلبة للصبر الجميل على الجزع، فقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، يجري مجرى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ (الفاتحة:٥)، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ يجري مجرى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾»[١].

في ضوء هاته المعاني، توجب علينا رد كل الأقوال التي رأت أن صبر يعقوب، عليه السلام، في مقام الظلم مذموم عقلا وشرعا[٢]، نرد هذا القول لأنه نقض صريح لدلالة الصبر الجميل الوارد في الآية، إذ لو كان صبرٌ سيدنا يعقوب مذموما حقا في هاته الحالة لاستحق أن يوصف بالقبيح، وهو مالم

---

(١) تفسير الألوسي بتصرف، ٤٦٢/٨.

(٢) يقول ابن عادل نقلا عن ابن الخطيب: «وههنا بحثٌ، وهو أنَّ الصَّبْر على قضاءِ الله واجبٌ، وأما الصَّبْرُ على ظُلْم الظَّالِم فغيرُ واجب، بل الواجبُ إزالتهُ لا سيَّما في الضَّرر العائدِ إلى الغير، وههنا أنَّ إخوة يوسف قد ظهر كذبهم، وخيانتهم، فلم صبر يعقوب على ذلك؟ ولِمَ لَمْ يبالغ في التَّفتيش، ولا البحث عنه، ولا السَّعي في تخليص يوسف من البليَّة والشِّدَّة إن كان حيًّا، وفي إقامة القصاص إن صحَّ أنهم قتلوه فثبت أنَّ الصَّبْرَ في هذا المقام مذموم». ويقول في موضع آخر: «وأيضاً، فإنَّ يعقوب عليه الصلاة والسلام كان رجلاً عظيم القدر في نفسه، وكان من بيتٍ عظيم شريفٍ، وأهلُ العالم كانوا يعرفونه، ويعتقدون تعظيمه، فلو بالغ في البحث والطلب لظهر ذلك واشتهر، ولزال وجهُ التَّلبيس، فما السَّبب في أنه عليه الصلاة والسلام مع شدَّة رغبته في حضورِ يوسف، ونهاية حبِّه له لم يطلبه مع أنَّ طلبه كان من الواجبات؟ فثبت أنَّ هذا الصَّبْر مذمومٌ عقلاً وشرعاً». تفسير اللباب لابن عادل، ٢٢٩/٩.

تقل به الآية الكريمة، لأن صبره، عليه السلام، كان في قمة الجمال، فقد: «عرف بقرائن الأحوال أنّ أولاده أقوياء، وأنّهم لا يمكنونه من الطّلب والفحص، وأنّه لو بالغ في البحثِ فربما أقدموا على إيذائه، وأيضاً لعلمه، عليه الصلاة والسلام، أنّ الله تبارك وتعالى سيصون يوسف، عليه الصلاة والسلام، عن البلاءِ والمحنةِ، وأن أمرهُ سيظهرُ بالآخرةِ، ولم يرد هتْك ستر أولاده وإلقاءهم في ألسنةِ النّاس، وذلك لأنّ أحَد الولدينِ إذا ظلم أخاه وقع أبوه في العذابِ الشّديدِ؛ لأنه إذا لم ينتقمْ؛ يحترق قلبه على الولد المظّلوم، وإن انتقم احترق قلبه على الولدِ المُنتقَم منه، فلمّا وقع يعقوب في هذه البلية رأى أنّ الأصوب الصّبر والسُّكون، وتفويض الأمْرِ بالكُلّيَّة إلى الله تعالى»[1].

بقيت الإشارة في نهاية هاته الفقرة إلى أن أقوالا مثل التي أوردتُها أعلاه، تفرض علينا تحديا كبيرا يتمثل في ضرورة العمل على اجتراح آليات جمالية جديدة في تفسير القرآن الكريم، من أبسط مقتضياتها: رفض كل المعاني والتأويلات التي تتعارض وجمالية القرآن، أو تلك التي تشوش على نصاعة الرؤية الجمالية القرآنية في الكلمة والتركيب، أو في المعنى والسياق

---

(١) ابن عادل، تفسير اللباب، ٢٢٩/٩. تعمدت إيراد هذا القول لابن عادل، وهو كما لا يخفى يتناقض بشكل صريح مع توصيفه لصبر سيدنا يعقوب بكونه مذموما، والغريب في الأمر أنه أورد هذا الكلام ونقيضه في الموضع نفسه والصفحة نفسها من تفسيره، رحمه الله.

على حد سواء[1]، ونعتقد أننا بهذا الاقتراح المشفوع بـبعض الاجتـهادات المتواضعة بهذا الصدد،نكون قد فتحنا الباب- وإن بشكل محتشم- أمام عمل يـمكن أن يكون مقدمة لتفسير جمالي غير مسبوق للقرآن الكريم، نـسأل الله أن يهيئ له من ينهض به من العلماء والمفكرين.

---

(١) يتعزز هذا الرأي أكثر، عندما نرجع إلى بعض التفاسير الحديثة التي يفترض أنهـا تهتم بالنواحي الجمالية في التعبير القرآني، لكنها لا تستجيب للتطلعات التي يتشوف لها هذا البحث. رجعت مثلا إلى «التفسير القرآني للقرآن» للدكتور عبد الكريم الخطيب، رحمه الله، وكنت أتوقع توسعه في الحديث عن الدلالات الجمالية للصبر في سـورة يوسف عند قوله تعالى ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، لكنه اكتفى بالقول: «فذلك هو عزاؤه عـن مصـابه في ابنه، وفي بنيـه أيضـا»، ١٢٤٧/٦، وقولـه تعليقـا على الآية نفسها في الموضـع الثـاني من سـورة يوسـف: «أي فصـبر جميل على هذا المكروه، هو الدواء الذي لا دواء له» ٣٢/٧، ولـم يزد على هذا، بـل إن الباحـث ليـصاب بالدهشة وهو يقلب صفحات كتاب متخصص في موضوعات القرآن الكـريم كـ: «المعجم الموضوعي للقرآن الكريم» بـمجلداته الستة، للشيخ عبد الحفـيظ فرغلـي والدكتور عبد الحميد مصطفى، ولا يجد إشارة لموضوع الجمال أو الزينة والحـسن، كأن القرآن الكريم لا يتحدث عن هاته الموضوعات ولا يشير إليها.

المبحث الثاني
مفهوم «الزينة» في القرآن الكريم

ذكر لفظ «الزينة» باشتقاقاته المختلفة في ستة وأربعين موضعا من القرآن الكريم[1]، واستعمل في سياقات مختلفة تعكس احتفاء خاصا بهذا المفهوم الجمالي، احتفاء تمثل أولا في التوظيف المكثف لهذا اللفظ بنسبة تتجاوز خمس مرات تلك التي استعمل فيها لفظ «الجمال»، وتمثل ثانيا في المعاني المختلفة التي استعمل فيها التعبير القرآني هذا اللفظ الذي نلفيه دائم التجوال بين حقول دلالية مختلفة في القرآن الكريم.

يلفت النص القرآني انتباه الإنسان في البداية إلى أن الزينة المبثوثة في الكون هي خلق إلهي ينسبه تعالى إلى نفسه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ (الصافات:٦)، ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ (الملك:٥)، ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ (فصلت:١٢).

ثم إن هاته الزينة ليست مقصورة على السماء وحدها، بل إنها تنتظم الوجود كله، وتدخل في جزئيات الحياة وتفصيلاتها لدرجة يمكن معها

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص ٤٢٦ وما بعدها.

القول: إن هاته الحياة التي نحياها ليست إلا زينة ومتاعا: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ (الحديد: ٢٠)، ومن ثمة فكل مافي هاته الحياة لايخرج عن هاته القاعدة: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ (القصص: ٦٠).

وزيادة في الإيضاح يورد القرآن الكريم أمثلة من هاته الأشياء التي خلقها الله وزينها لعباده: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ (آل عمران: ١٤)، ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ (الكهف: ٤٦).

إن الإنسان المسلم بين تبتله في الليل وسبحه في النهار، مدعو بقوة إلى التمتع بزينة الدنيا لأنها خلقت من أجله، أي من أجل إسعاده، ومساعدته على تحمل الأمانة الثقيلة التي كُلف بها، من هنا كانت دعوة القرآن لبني آدم صريحة في أن يتزينوا ويتحلوا بحلل الجمال عند قدومهم للقاء اليومي لذي الجلال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ (الأعراف: ٣١)، ولا يحب من حرم

زينة الله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:٣٢).

تأسيسا على ماسبق، فإن الله تعالى ما خلق الزينة وأبدعها وأحلها لعباده عبثا، بل لحكمة وتدبير سابق، يريد سبحانه من عباده أن يكتشفوه بالتأمل في هاته الأطباق المختلفة من الزينة، ويدعوهم بأسلوب كله تحبيب وترغيب أن يُعملوا نظرهم في هذا الكون الفسيفسائي الجميل: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ (ق:٦)، ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ (الحجر:١٦)، ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةًۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [1](النحل: ٨).

غني عن القول إذا: إن إنعام النظر في هاته التشكيلات المختلفة من الزينة، يؤدي إلى معرفة خالقها، معرفة تستدعي تبجيله وتعظيمه، ومن ثم

---

(١) ينبهنا فهمي هويدي إلى لفتة ذات معنى بهذا الصدد فـ: «في السياق ذاته والسورة نفسها، تحدث الله تعالى عن تسخير البحر فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ (النحل:١٤-١٦). إذ لم يقصر فائدة البحر على العنصر المادي المتمثل في استخراج ما يؤكل منه، بل ضم إليه الحلية التي تلبس للزينة، فتستمتع بها العين والنفس»، نظرة في جماليات القرآن الكريم، مجلة المجلة، عدد الأربعاء: ٠٨/١٢/٢٠٠٤م بتصرف.

طاعته وعبادته، وخلافته في الأرض بما يحب ويرضى[1]. ههنا نقف على ملمح لطيف يتعلق بالوظيفة المزدوجة للزينة في القرآن الكريم، فهي دليل على الخالق سبحانه، كما أنها وسيلة للاختبار والتمحيص: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الكهف:٧)، ومن العمل الحسن، عدم البعد عن الصحبة الصالحة طمعا في زينة الدنيا: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ (الكهف:٢٨)، فهي إن صدت المؤمن عن طاعة الله تكون: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ﴾ (يونس:٢٤)، تماماً

---

(١) يقول الطاهر بن عاشور، رحمه الله، في تفسيره لقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (آل عمران:١٤): «ولا تكون الأشياء زينة إلا وهي مبثوثة فيها الحياة التي بها نماؤها وازدهارها. وهذه الزينة مستمرة على وجه الأرض منذ رآها الإنسان، واستمرارها باستمرار أنواعها وإن كان الزوال يَعرض لأشخاصها فتخلفها أشخاص أخرى من نوعها. فيتضمن هذا امتناناً ببث الحياة في الموجودات الأرضية. ومن لوازم هذه الزينة أنها توقظ العقول إلى النظر في وجود منشئها وتسبُر غورَ النفوس في مقدار الشكر لخالقها وجاعلها لهم، فمن موف بحق الشكر، ومقصر فيه وجاحد كافر بنعمة هذا المنعم ناسب إياها إلى غير موجدها»، التحرير والتنوير، ٣٣١/٨.

كما حدث لفرعون الذي لم يعرف كيف يتمتع بالزينة التي أعطاها الله إياه، فانقلبت الزينة بدعاء موسى، عليه السلام، قبحا وبؤسا: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ (يونس:٨٨).

أمام هذا الموقف، يصير التوازن في التزين أخذا وعطاء، مطلوبا في مختلف مناحي الحياة، لكن إن أصر المرء على العكس، واختار الزينة وحدها، دونما نظر إلى مُعطيها، ودون أن يوظفها في الاتجاه الصائب الذي خلقت له، فسيحصل على مايريد، لكن في الدنيا فقط: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (هود:١٥)، تماما كما حصل لقارون الذي صار أمثولة لمن غرته الزينة وطوحت به بعيدا عن الحق: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (القصص:٧٩)، نعم إنه كذلك، لكن بمقاييس البشر الدنيوية التي تشرئب بجبلتها إلى هاته الحظوظ، يستوي في ذلك كل الناس، بدءا بأصغر مكلف، ووصولا إلى من يعيش في بيت النبوة حيث الوحي يتنزل غضا طريا، لتوجيه أمهات المؤمنين وتحذيرهن من شراك الدنيا وزينتها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (الأحزاب:٢٨).

ولأن العبرة في القرآن الكريم بعموم اللفظ لابخصوص السبب، فإن النساء، كل النساء، معنيات بهذا النداء، إضافة إلى أنهن مطالبات بصيانة الزينة التي جعلهن الله محلا لها، والذود عنها حتى لاتنقلب في أيديهن إلى وسيلة للإغراء والإغواء: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور:٢٤-٣١) وعليهن بالمبالغة في التستر، والتحوط من إبداء الزينة المؤدية إلى المحذور، حتى ولو كن من القواعد ﴿ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور:٢٤-٦٠).

إن مختلف أشكال الزينة تكون جميلة حسب الوصف القرآني إذا وردت في سياق التوظيف الإيجابي لهاته الأشكال، لكنها عندما تستعمل للتضليل أو الإغواء تصير «فتنة»، لذلك يمكننا إدراج هذا المصطلح في منظومة المفاهيم الجمالية التي يستعملها القرآن الكريم للقدح في الاستعمال السيء

للجمال والحسن ووضعه في غير الموضع الذي يخدم مقاصد الشارع وأهدافه. قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال:٢٨)[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ (طه:٩٠)، وقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (طه:١٣١)، وقوله عز وجل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء:٣٥). ومن الخير الذي نُبتلى به: الحسن والجمال؛ قال تعالى: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ (طه:٤٠)، والفُتونُ أيضاً: الافْتِتانُ، يتعدَّى ولا يتعدَّى، ومنه قولهم: قلبٌ فاتِنٌ، أي مُفْتَتِنٌ. قال الشاعر:

رخيمُ الكلام قطيعُ القيا ... مِ أمسى فؤادي بها فاتِنا

وفَتَنَتْهُ المرأة، إذا دلَّته، وافْتَتَنَتْهُ أيضاً. وأنشد أبو عبيدة لأعشى همدان:

لئن فَتَنَتْني فهي بالأمس أَفْتَنَتْ ... سعيداً فأمسى قد قلا كلَّ مسلمِ[2]

نخلص مما سبق إلى أن مصطلح «الزينة» في الاستعمال القرآني، استُعمل في سياقات جمالية بديعة تخدم المعنى وتُسنده بشكل يؤدي إلى التأثير في السامع، ومن ثم حمله على الامتثال لمضمون الآية إن سلبا أو إيجابا. وقد

(١) وبالصيغة نفسها في (التغابن:١٥).

(٢) الصحاح في اللغة، مادة: فتن.

رأينا في الأمثلة التي أوردناها آنفا، كيف عمل الخطاب القرآني على تطويع مفهوم «الزينة» لخدمة مقاصده في مخاطبة الخلق، وكيف حافظ على توازن هذا المفهوم الذي وجدناه يخدم دفعة واحدة أهدافا تبدو كطرفي نقيض، لكنها بعد تدقيق النظر تصير هدفا واحدا، يتلخص في أن الزينة باعتبارها متعة جمالية تريح النفس وتُبهج العين، يجب أن توظف إيجابيا للوصول إلى غايات نبيلة[1]، وغاية الغايات هنا هي محبة الإيمان وتزيينه في قلوب المومنين: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ

---

(١) لهذا السبب، يحذر القرآن الكريم من التوظيف الشيطاني للزينة، التي يعتبرها القرآن آلية ناجحة من آليات الشيطان التضليلية التي يستدرج بها الناس للغواية والضلال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر:٣٩)، ويكفي تأمل الآيات التالية، فهي دون تعليق تقوم شاهدة على صدق ما قلت، يقول تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام:٤٣)، ويقول سبحانه: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النحل:٦٣)، ويحكي القرآن الكريم عن عاد وثمود: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ (العنكبوت:٣٨)، كما يحكي على لسان هدهد سليمان، عليه السلام: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (النمل:٢٤)، ولخيرا يصور التعبير القرآني كيف غرر إبليس بقريش في غزوة بدر: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال:٤٨).

ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ﴾ (الحجرات:٧)[١]، وبهذا يعصم المؤمن من الوقوع في شَرَكِ أي توظيف سيء لهاته النعمة[٢]. وبذلك تتحقق الفائدة من مصطلح «الزينة» باعتباره مفهوما يؤثث المنظومة الجمالية للقرآن، ويضفي عليها إشراقات بديعة في البيان والتصوير، في انسجام وتكامل مع المفاهيم الجمالية الأخرى التي تخدم الغرض نفسه، لكن من موقع مختلف، كما هو الشأن مع مفهوم «الحسن».

---

(١) يحرص النص القرآني على التذكير الدائم بأن «زينة» الدنيا، يجب أن لاتنسينا «الزينة» الخالدة التي عند الله: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (الكهف:٤٦)، ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (القصص:٦٠).

(٢) لخطورة هذا الأمر، نبه عليه القرآن الكريم في ثلاثة عشر موضعا من التنزيل الحكيم، وبين أن هذا التوظيف السيء يكون بتزيين الأعمال السيئة للإنسان: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَ يَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (البقرة:٢١٢)، ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ (الأنعام:١٠٨)، ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام:١٢٢)، ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (الأنعام:١٣٧)، وكذلك في باقي الآيات الشريفة الآتية: (التوبة:٣٧)، (يونس:١٢)، (الرعد:٣٣)، (غافر:٣٧)، (النمل:٤)، (فاطر:٨)، (محمد:١٤)، (فصلت:٢٥)، (الفتح:١٢).

المبحث الثالث

مفهوم «الحسن» في القرآن الكريم

يقدم هذا المفهوم القرآني نفسه في لبوس مخالف للمفهومين السابقين، من حيث دلالته على الموضوع الجمالي وصلته به، ودرجة توظيفه، وسياق استعماله، وتنوع صيغه، فقد ذكر هذا اللفظ بصيغ مختلفة جاءت منسجمة مع الإطار العام الذي ذكرت فيه في القرآن الكريم[1]، وخادمة للغرض التعبيري والمضموني في آن واحد.

نسجل في البداية أن مفهوم «الحسن» في السياق القرآني حافظ على دلالة واحدة، على الرغم من تنوع السياقات التي ذكر فيها وتعددها، وهذه

(١) ذكر لفظ الحسن في القرآن الكريم بصيغ مختلفة: حسُن: مرة واحدة – حسُنت: مرتان – أحسنَ: تسع مرات – أحسنتم: مرتان- أحسنوا: ست مرات- تحسنوا: مرة واحدة- يحسنون: مرة واحدة – أحسِن : مرة واحدة – أحسنوا: مرة واحدة – حُسن: سبع مرات – حُسنا: خمس مرات – حسنُهن: مرة واحدة – حسنٍ: مرة واحدة – حسناً: ثماني عشرة مرة – حسنة: ثماني وعشرين مرة – حسنات: ثلاث مرات- الحُسنى: سبع عشرة مرة – الحسنيين: مرة واحدة – حسان: مرتان- أحسَنُ: أربعة وثلاثون مرة – أحسنه: مرة واحدة – بأحسنها: مرة واحدة – إحسانٍ: ست مرات- إحسانا: ست مرات – محسن: أربع مرات- محسنون: مرة واحدة – محسنين: ثلاثا وثلاثين مرة- للمحسنات: مرة واحدة. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص٢٥٦ وما بعدها.

الدلالة تنصرف إلى أن «الحسن» في الشيء دليل على أن الجمال جزء من تكوينه وحقيقته، أو بعبارة أخرى دليل على أن الجمال مكون أساس لماهيته وجوهره، وهذا يعني أن «الحسن» في التوصيف القرآني وفي استعمال الفصحاء: «لا يستعمل للدلالة على وقع ذلك «الشيء» في النفس بل للتعبير عن حقيقته»[1]، تماما كما هي ماثلة فيه، فالمرأة مثلا بجبلتها حسناء، ولذلك يصف القرآن الكريم جمالها بالحسن عندما يقصد هذا الملمح كما في قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ (الأحزاب:٥٢)، في إشارة إلى جمال المرأة الجبلي المترتبط بأنوثتها ورشاقتها وطبعها المرهف، أو مايتعلق بجمالها المعنوي المرتبط في التصور الإسلامي بالإحسان في العبادة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب:٢٩)، لكن إذا وظفت المرأة جمالها لنيل الشهوة الحرام، أو للإيقاع بالغير في المعصية، فالقرآن الكريم يستعمل وصفا آخر، هو وصف «الزينة» كما مر معنا في المطلب السابق، ويكفي هنا تأمل الآيتين التاليتين دليلا على ذلك، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ

---

(١) عباس توفيق، ألفاظ الجمال في القرآن الكريم ، المختار الإسلامي، ربيع الآخر ١٤٢٥ هـ-يونيو ٢٠٠٤م.

وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ (آل عمران:١٤)، فالشهوة التي يطلبها الناس في النساء زينة، تزداد أكثر بإبداء المفاتن والخضوع بالقول، والتكسر في المشية، وعدم غض الأبصار، لذلك ورد التنصيص صراحة على نهي النساء عن استعمال هاته الزينة في غير مواضعها، و لم ينتخب النص القرآني وصفا آخر غير وصف «الزينة» الذي ورد ثلاث مرات في آية واحدة: ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ (النور:٣١).

ونستطيع من خلال تتبعنا لمفهومي «الحسن» و«الزينة» في القرآن الكريم أن نجد آيات كريمة واضحة الدلالة على الفرق بينهما، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ﴾ (فاطر:٨)، فقد وصف الباري سبحانه العمل السيء بالزينة، ومر معنا في الصفحات السابقة أن

الشيطان هو الذي يزين الأعمال السيئة للناس لإغوائهم وإضلالهم[1]، لكن بمجرد أن يقتنع المرء – ولو كان مغررا به – بجمال هاته الأعمال، أو يخيل إليه أن مايقوم به – لسوء فهمه أو ضعف إدراكه – هو الحق عينه، فإن التعبير القرآني هنا يصف هذا العمل بـ: «الحسن» لأن صاحبه ما أقدم عليه إلا لظنه أنه يوافق الصواب، ويخدم المصلحة ويحققها، فانطباعه أثناء قيامه بهذا العمل، أنه يؤدي عملا جميلا، فكان أن وصفه القرآن الكريم بـ: «الحسن»، ولن يمنع من ذلك شيء حتى مع إقرار النص القرآني بفساد

---

(١) لهذا السبب، كما سبقت الإشارة، يحذر القرآن الكريم من التوظيف الشيطاني للزينة، التي يعتبرها القرآن آلية ناجحة من آليات الشيطان التضليلية التي يستدرج بها الناس للغواية والضلال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر:٣٩)، ويكفي تأمل الآيات التالية، فهي دون تعليق تقوم شاهدة على صدق ما قلت، يقول تعالى: ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَـكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام:٤٣)، ويقول سبحانه: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النحل:٦٣)، ويحكي القرآن الكريم عن عاد وثمود: ﴿وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ (العنكبوت:٣٨)، كما يحكي على لسان هدهد سليمان، عليه السلام: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾ (النمل:٢٤)، وأخيرا يصور التعبير القرآني كيف غرر إبليس بقريش في غزوة بدر: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال:٤٨).

هذا العمل وخسرانه، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (الكهف:١٠٣-١٠٤).

إن الارتباط العضوي بين الحسن والجمال الحقيقي الموجود في الأشياء، مسألة تأكدت لدينا باستقراء جميع الآيات القرآنية التي ورد فيها لفظ «الحسن» بجميع صيغه، ومهما كان السياق الذي ورد فيه، أو الجهة التي نُسب إليها أو وُصف بها.

فعلى امتداد الآيات الشريفة التي تضمنت لفظ «الحسن»، يلفي الباحث نفسه في منظومة من المواقف والصور والمشاهد والتطبيقات التي يسكنها الجمال من كل ناحية، بل هي الجمال عينه، فبينها وبينه علاقة نسب ومصاهرة، تزداد مع السرد القرآني تألقا، وتأخذ بالألباب كلما تطور التصوير وتنوعت المشاهد، طبيعية كانت أو إنسانية.

فالعلاقات الإنسانية تكون جميلة عند توفر الصحبة «الحسنة» لأن وجودها يعصم من الوقوع في «زينة» الدنيا، فكانت معية الصالحين في الدنيا مطلوبة لهذا الغرض: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ (الكهف:٢٨)، وإذا تحققت هاته الصحبة الدنيوية للإنسان، فإنه يجازى بأفضل منها في الآخرة، إنها الرفقة الحسنة لثلة: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ (النساء:٦٩)، حسُنت هاته الرفقة في الآخرة، كما حسنت في الدنيا لتوفر بمجموعة من الشروط، تتفق جميعهـــا في كونها موصوفة بالحسن، والحُسن هنا ليس شيئا آخر غير الجمال الحقيقـــي الذي لا تشوبه شائبة، ولا يعكر صفوه كدر.

لنتأمل أمثلة من هاته الشروط في الآيات الآتية:

١- الإحسان في العبادة بجمالية تطبيق الفـــرائض، وحـــسن تأديـــة الواجبات، والاجتهاد في نشدان الحسن الإلهي المطلق بطول المناجاة، ودوام التبتـــــل: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ (النـــساء:١٢٥)، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ (النحل:١٢٨)، من هنا دعوة الناس إلى صحبة مع المحسنين التماسا لمحبة الله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (آل عمـــران:١٣٤)، ورحمتـــه: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (لقمان:٣)، وحسن جزائه: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (المرسلات:٤٣-٤٤) [(١)].

٢- الإحـــسن إلى الوالـــدين: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ

---

(١) وقد وردت هاته العبارة ثلاثا وثلاثين مرة في القرآن الكـــريم، مقترنـــة بمحبـــة الله ومعيته، وجزائه الحسن، وبشارته للمؤمنين بالحسنى وزيادة .

فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (العنكبوت:٨)، ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة:٨٣)، ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (النساء:٣٦)، ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (الأنعام:١٥١)، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (الإسراء:٢٣).

٣- القول الحسن واستبدال الحسن بالسيء: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة:٨٣)، ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ (الإسراء:٥٣)، ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر:١٨)، ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النمل:١١).

٤- القرض الحسن: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة:٢٤٥)، ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ

ٱلسَّبِيلِ﴾ (المائدة:١٢)، ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (الحديد:١١)، ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (الحديد:١٨)، ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ (التغابن:١٧)، ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ (المزّمّل:٢٠).

٥- الموعظة الحسنة: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ﴾ (النحل:١٢٥).

٦- الأسوة الحسنة برسول الله ﷺ والأنبياء وصالحي الأمة، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب:٢١)، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ (الممتحنة:٤)، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ (الممتحنة:٦).

٧- التصديق بالحسنى وعدم التكذيب بها: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ[1]﴾ (الليل:٥-٦)، ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ (الليل:٨-٩).

---

(١) الملة الحسنى: الإسلام.

٨- تقديم التحية الحسنة: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ (النساء:٨٦).

٩- الجدال الحسن: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل:١٢٥)، ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت:٤٦).

١٠- التسريح الحسن: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ (البقرة:٢٢٩).

١١- مطلق الإحسان إلى النفس والآخرين والدفع بالتي هي أحسن في كل المواقف والأفعال: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ (الإسراء:٧)، ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص:٧٧)، ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة:١٩٥)، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران:١٧٢)، ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة:٩٣)، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (يونس:٢٦)، ﴿وَقِيلَ

﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (النحل:٣٠)، ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر:١٠)، ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ (النجم:٣١)، ﴿وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء:١٢٨)، ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ (الأنعام:١٥٢)، ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت:٣٤)، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ (النحل:٩٠).

إن هاته الأمثلة كافية للتدليل على صحة ما ألمحنا إليه آنفا، ففيها تتبدى بوضوح ملامح الجمال الحقيقي المتمثل ابتداء بالإحسان إلى الوالدين والبر بهما، وانتهاء بالإحسان إلى النفس والآخرين، والدفع بالتي هي أحسن في كل المواقف والأفعال؛ في القول الحسن والقرض الحسن والموعظة الحسنة والأسوة الحسنة والتحية الحسنة والجدال الحسن، بل إن الوصف القرآني ينسحب بالسوية حتى على ما يُظن أنه ليس حسنا، كما هو الحال عند

وصفه للطلاق بـ: «التسريح الحسن»[1]؛ ولعل التأمل الواعي في حالة الأزواج الذين يقدمون على الطلاق، من حيث نفسيتُهم المتوترة، ومزاجُهم المضطرب، مع استحضار حالة الهيجان والتعصب التي يكونون عليها، كل ذلك يهدينا إلى الحكم على الطلاق بأنه تسريح حسن، أو تسريح جميل كما مر معنا في مطلب الجمال السابق[2]، وذلك بالنظر إلى المآلات والعواقب الوخيمة التي كانت ستحدث لو تم الإبقاء على الزوجين في رباطٍ لا ود فيه ولا رحمة، وهي مآلات أقل ما توصف به أنها نقيضة للحسن والجمال، إنما القبح في أشنع تجلياته الحسية والمعنوية.

على الإيقاع نفسه، تستمر مواكب الحسن في النص القرآني، مبينة أن الله تعالى الذي: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ (طـه:٨)[3]،

(١) أو في وصفه للبلاء بالحسن كما في قوله تعالى في الأنفال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال:١٧)، ومعلوم أن البلاء ثقيل في العادة على النفس ومن ثم فهي تمجه وتكرهه وتصفه بالقبح، لكن بعد تمحيص النظر فالبلاء بالمحن والرزايا عادة ماينقلب إلى منح وعطايا.

(٢) الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿وسرحوهن سراحا جميلا﴾.

(٣) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف:١٨٠)، ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء:١١٠)، ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحشر:٢٤).

هو خالق الحسن من عدم: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ﴾ (السجدة:٧)، وهو منشئه دون مثال سابق: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمۡ فِى ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (آل عمران:٦)، هو مسبغه على الكائنات : ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٍ﴾ (التين:٤)، هو المشكل لصوره الجميلة وأشكاله المختلفة: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾[1] (غافر:٦٤)، وقبل هذا وأثناءه وبعده، هو من قذف تقدير الحسن في نفس الإنسان، وعلمه كيف يتذوقه ويستغله لمصلحته، ومنحه فطرة[2] تسميل إلى تلمس مواطنه فتنفعل بها، وتتملى تجلياته فتركن إليها؛ من ذلك «الرزق الحسن» الوارد في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنًاۚ﴾ (هود:٨٨)، ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرًا وَرِزۡقًا حَسَنًاۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾ (النحل:٦٧)، ﴿وَمَن رَّزَقۡنَـٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ﴾

(١) ومثلها في التغابن: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (التغابن:٣).

(٢) من المهم هنا الإشارة إلى أن أغلب المفسرين يرون أن المقصود بـ«صبغة الله» الواردة في قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ (البقرة:١٣٨)، دين الله، لكن هناك فهما آخر يخدم غرضنا في هذا المبحث، ومضمونه أن المقصود بالصبغة في الآية هو «فطرة الله التي فطر الناسَ عليها»، كما قال مجاهد وابن جريج، ينظر تفصيل ذلك في تفسير الطبري، ١١٩/٣.

(النحل:٧٥)، ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ (الحج:٥٨)؛ إن حُسن الرزق يتبدى في كونه هبة وعطاء من الله، ثم هو آية للتأمل والاعتبار، ومعيار للتفاضل، فكان نعم الهدية للمجاهدين والمهاجرين في سبيل الله، جزاء لهم على حسن عملهم: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ[1] ﴾ (التوبة:١٢٠-١٢١)، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴾ (الكهف:٣٠).

ومن ذلك أيضا «المظهر الحسن» و«المقام الحسن» و«الأثاث الحسن» الوارد في قوله تعالى: ﴿ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ﴾ (مريم:٧٣)، ﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ﴾

(١) هاته العبارة هي الأكثر استعمالا في النص القرآني للفظ الحسن، فقد ورد ذكرها أربعا وثلاثين مرة (أحسن عملا – أحسن القصص –أحسن مثواي – أحسن تأويلا – أحسن الخالقين – أحسن تفسيرا – أحسن مقيلا – أحسن الحديث – أحسن تقويم ...).

(مريم:٧٤)، فلا خلاف أن المجالس تعتبر من أحسن ما يتجمل به، لذلك يتنافس أصحاب الجاه والسلطان في التفنن فيها، بالإعداد الجيد لها، وتوفير المستلزمات الضرورية لها، من حاشية وخدم وأبهة في مجالس الحكم، ومن مأكل حسن وشراب حسن وجليس يحسن الكلام ويجيد فنون القول بما يحقق الإمتاع والمؤانسة في مجالس الأنس والطرب، لذلك فالتعبير القرآني حافظ على وصف هاته المجالس التي هذا شأنها، ملمحا إلى أن المجالس الحسنة التي تستحق الجلد والمصابرة هي مجالس وأندية الآخرة لأنها: ﴿أَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾[1]، في السياق نفسه تحدث القرآن الكريم عن «المظهر الحسن» و«الأثاث الحسن» في قوله تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا﴾ (مريم:٧٤)»، باعتبارهما من المواطن التي يطلب فيها الحسن، ويجتهد الإنسان في الظهور فيها على أحسن وجه وأتمه.

وقد أحسن المفسرون صنعا عندما وقفوا، رحمهم الله، على هذا المعنى من خلال تفسيرهم للآية السابقة بتفسيرات نجملها مع العلامة البقاعي في الآتي:

---

(١) ورد في تفسير هاته الآية عدة أوجه؛ أحدها: «أفضل مجلسا. الثاني: أوسع عيشاً. ويحتمل ثالثاً: أيهما خير مقاماً في موقف العرض، من قضى له بالثواب أو العقاب؟، وقيل المراد: منزل إقامة في الجنة أو في النار، وقيل: ﴿وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾ «أي مجمعاً ومتحدثاً باعتبار ما في كل من الرجال، وما لهم من الزي والأموال»، نظم الدرر للبقاعي، ٢٢١/٥؛ وتفسير النكت والعيون للماوردي، ٣٣/٣.

- أحدها: أن الأثاث: المتاع، والرئي: المنظر، قال الشاعر:

أشاقت الظعائن يوم ولوا   بذي الرئي الجميل من الأثاث

- الثاني: أن الأثاث ما كان جديداً من ثياب البيت، والرئي الارتواء من النعمة.

- الثالث: الأثاث ما لا يراه الناس. والرئي ما يراه الناس.

- الرابع: معناه أكثر أموالاً وأحسن صوراً.

- ويحتمل خامساً: أن الأثاث ما يعد للاستعمال، والرئي[1] ما يعد للجمال[2].

---

(١) توسع المفسرون، رحمهم الله، في بيان المدلول الجمالي للرئي، وفصلوا فيه تفصيلا يكشف تجليات الحسن المتضمنة فيه، من ذلك ماأشار إليه الشيخ الطاهر بن عاشور، رحمه الله، بقوله: «﴿ورئيا﴾ قرأه الجمهور بهمزة بعد الراء وبعد الهمزة ياء على وزن فِعْل بمعنى مفعول كذبح، من الرؤية، أي أحسن مَرْئيًا، أي منظراً وهيئة. وقرأه قالون عن نافع وابن ذكوان عن ابن عامر «ريّاً» بتشديد الياء بلا همزة إما على أنه من قلب الهمزة ياء وإدغامها في الياء الأخرى، وإما على أنّه من الريّ الذي هو النعمة والترفه، من قولهم: ريّان من النّعيم. وأصله من الريّ ضد العطش، لأنّ الريّ يستعار للتنعم كما يستعار التلهّف للتألّم»، التحرير والتنوير، ٩/٦؛ ومن ذلك أيضا ماقاله العلامة الزمخشري، رحمه الله، في كشافه: «قرىء على خمسة أوجه ﴿رِءْياً﴾ وهو المنظر والهيئة فعل بمعنى مفعول، من رأيت «ورئياً» على القلب كقولهم: راء في رأي «وريّاً» على قلب الهمزة ياء والإدغام، أو من الريّ الذي هو النعمة والترفه، من قولهم: ريان من النعيم. «وريًا» على حذف الهمزة رأساً، ووجهه أن يخفف المقلوب وهو «رئياً» بحذف همزته وإلقاء حركتها على الياء الساكنة قبلها «وزيّاً» واشتقاقه من الزيّ وهو الجمع؛ لأن الزيّ محاسن مجموعة، والمعنى: أحسن من هؤلاء»، الكشاف، ١١٠/٤.

(٢) ينظر تفصيل ذلك في: نظم الدرر للبقاعي، ٢٢١/٥.

في الحالات جميعها، المدار كله على وجود الحسن وبروزه، في المتاع والمنظر، في المال والثياب، وفي كل النعم التي يرتوي منها الإنسان ويُظهرها ليعجب به الناس، ويعجبون من صنيعه وتميزه.

بعد هذا التجوال في المدلولات الجمالية لمفهوم الحسن في القرآن الكريم، نستطيع أن نقرر بهدوء أن التعبير القرآني عن الجمال الحقيقي الموجود في الأشياء لايكون إلا باستعمال لفظ «الحسن» الذي يدل في جميع صيغه على وجود ارتباط عضوي بين هذا الشيء والجمال الكامن فيه؛ من ذلك مثلا قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ (آل عمران:١٤)، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ (ص:٢٥) ، وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ (يوسف:٢٣)، وهذه الآيات: «دالة على حقائق الحسن، فحسن المآب يعني أن المآب في حقيقته جميل وليس جماله انطباعا يشعر به الإنسان يوم القيامة. ولهذا أيضا فإن الباري عز وجل عندما يوجه عباده بقوله الكريم: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ (البقرة:٨٣)، فإنه يوجههم إلى أن يكون ما يقولونه في جوهره وحقيقته جميلا، لا أن يكون القول متراثيا لسامعه أنه جميل، في حين أنه ليس كذلك في نفس قائله، فهو يدعو عباده إلى صدق المقال وتجنب النفاق»[1].

(١) عدنان علي رضا النحوي، الأدب بين الجمال والزخرف، ص ٤.

وهكذا، يلاحظ المؤمن وهو يتدبر كتاب الله المقروء، أنه مدعو للبحث عن الحسن أنى وجده في كتاب الله المنظور، وهو مطالب بعد ذلك باتخاذ هذا الحسن دليلا له في العبادة والعمل، وفي العلاقات العامة مع أهله ومع غيره، فإذا حياته كلها تسير على إيقاع الحسن، أخذا وعطاء، تمثلا وتطبيقا، قولا وعملا؛ فالمسلم الحق هو من يعيش بالحسن، ويدعو إليه، وينشره في الآفاق مرددا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت:٣٣)».

المبحث الرابع

مفهوم «التسوية» في القرآن الكريم

يرتقي الاستعمال القرآني للمفاهيم الجمالية مراقي شتى، تنطلق من توظيف مفاهيم تصف مظاهر الجمال من حيث وقعها في النفس كما رأينا مع مفهوم «الجمال»، أو من حيث الوجود الحقيقي لهذا الجمال في الشيء كما مر معنا في مفهوم «الحسن»، أو من حيث ارتباطه بالاستعمال الوظيفي للإنسان سلبا وإيجابا كما جلّيْنا ذلك في مفهوم «الزينة»؛ لكن هذه المراقي تبلغ أوجها وكمالها مع مفهوم «التسوية» حيث الجمال مطلوب حضوره في المظهر والمخبر، في الشكل والمضمون، في الخارج والداخل، في الظاهر والباطن، وفي كل التمظهرات والتجليات المرتبطة بالشيء الذي وسمناه بـ«التسوية».

فالمستوي في كلام العرب هو: «التامُّ الذي قد بلغ الغاية في شبابه وتمام خلقه وعقله»[1]، ومن عادتهم في الكلام أن لا يقال في شيء من الأشياء «استوى بنفسه» حتى يُضَمَّ إلى غيره، فيقال: «استوى فلان وفلان» إلا في معنى بلوغ الرجل الغاية، فيقال: «استوى»، ومن ذلك وصفهم لليلة الثالثة

---

(١) الأزهري، تهذيب اللغة، مادة: سوى.

عشرة بالليلة السَّواء لأن فيها يستوي القمر ويكتمل[1]، ووصفهم للقَتَب الأعجمي المقدم للبعير بـ«السَوِيّة» ويجمعونه على «السَّوايا» لأن بتناوله يستوي البعير ويكتمل[2]، ومنه وصفهم للمكان البارز بـ«المكان السوي» لاكتماله وظهوره بحيث لايخفى على أحد، وهذا المعنى هو المراد في قوله تعالى: «مكاناً سوًى»،أي: معلما قد عَلِمَ القومُ به لاستوائه استواء يسهل إدراكه ومعرفته[3].

وقد جاء النص القرآني ليحافظ على المعنى السابق للتسوية ويؤكده، بل ويلبسه لبوسا آخر بإضافته إلى الذات الإلهية، فالله هو وحده القادر على تسوية الخلق وإخراجه إلى الوجود في أحسن صورة وأبهى حلة، قال تعالى: ﴿الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ (الأعلى:٢) وقال: ﴿الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ (الانفطار:٧)، أي الذي جعل أعضاءك سوية سليمة معدة لمنافعها، و«جعل قامتك مستوية معتدلة وخِلقتك حسنة»[4]، كما قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين:٤)، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ

---

(١) الأزهري، تهذيب اللغة، مادة: سوى.

(٢) العين، مادة: سوى.

(٣) وتصغير سواء وسوى: سُوَيّ، ويُجمَع على سواسية وأسواء»، و«السويّ فعيل في معنى مُفْتعل، أي مستوٍ». العين، مادة: سوى.

(٤) تفسير الرازي، ٤٦٠/١٦. قال السمرقندي في بحر العلوم، ٣٩/٤: ﴿الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾، يعني: الذي خلق كل ذي روح، وجميع خلقه، ويقال: سبح الله تعالى الذي خلقك فسوى خلقك يعني: اليدين والرجلين والعينين ولم يخلقك زمناً ولا مكفوفاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾.

مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ (الكهف:٣٧)، أي : معتدل الخلق والأعضاء، قال ذو النون: «أي سخَّر لك المكونات أجمع، وما جعلك مسخَّراً لشيء منها، ثم أنطق لسانك بالذكر، وقلبك بالعقل، وروحك بالمعرفة، ومدك بالإيمان وشرفك بالأمر والنهي، وفضلك على كثير ممن خلق تفضيلاً»[1].

إن التسوية هاهنا تتجاوز جمال الشكل إلى جمال المضمون، بل إنها تجمع بينهما في اتساق وتكامل، وعليه، «فاعوجاج زُبَانَى العقربِ من تسوية خلقها لتدفع عن نفسها بها بسهولة»[2]، وعليه فالتسوية هي: «جعل كل جنس ونوع من الموجودات معادلاً، أي مناسباً للأعمال التي في جبلته»[3]، ولذلك فهي: «تطلق على إكمال الشيء بحيث يحصل المقصود حتى أنه يقال: سوى الطعام، بمعنى طبخه على وجه مطلوب وعلى جعل الأشياء على سواء قيل وهو الأصل، فالأعضاء سوية سليمة معدة لمنافعها»[4]، لذلك عطف البيان القرآني جملة: ﴿فَسَوَّىٰ﴾ بالفاء دون الواو للإشارة إلى أن مضمونها هو المقصود من الصلة وأن ما قبله توطئة له[5].

---

(١) ابن عادل، تفسير اللباب، ٢٥٣/١٦.

(٢) التحرير والتنوير، ٢١٤/١٦.

(٣) التحرير والتنوير، ٢١٤/١٦.

(٤) تفسير أطفيش، ٢٣٨/١٢.

(٥) التحرير والتنوير، ٢١٤/١٦.

وعموما فالتسوية في الأصل هي كما قال الألوسي، رحمه الله، في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ (الانفطار:٧): «جعل الأشياء على سواء، فتكون على وفق الحكمة ومقتضاها بإعطائها ما تتم به»[١]، و«عدلها عدل بعضها ببعض، بحيث اعتدلت من عدل، فلاناً بفلان إذا ساوى بينهما، أو صرفها عن خلقة غير ملائمة لها من عدل بمعنى صرف، وقرأ غير واحد من السبعة عدلك بالتشديد أي صيرك معتدلاً متناسب الخلق من غير تفاوت فيه»[٢].

ولقد توسع المفسرون، رحمهم الله، في بيان مدلول التسوية بما لا يتسع المجال لبسطه هنا، ويمكن الاكتفاء ببعض الأمثلة التي تخدم غرضنا من هذا المبحث، فقد حصر صاحب «النكت والعيون» عموم الدلالات التي عليها مدار التسوية في الآتي:

- أحدها: أنشأ خلقهم ثم سوّاهم فأكملهم.
- الثاني: خلقهم خلقاً كاملاً وسوّى لكل جارحة مثلاً.

---

(١) تفسير الألوسي، ٢٤٦/٢٢، بتصرف يسير.

(٢) قال العلامة الطاهر بن عاشور، رحمه الله، في تفسيره لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾: «والتسوية: تقويم الشيء وإتقان الخلق، قال تعالى: ﴿ونفس وما سوّاها﴾ (الشمس:٧) وقال في هذه السورة: ﴿فخلق فسوى﴾ (القيامة:٣٨). وأريد بالتسوية إعادة خلق البنان مقوّمة متقنة، والبنان: أصابع اليدين والرجلين أو أطراف تلك الأصابع. وهو اسم جمع بنانة، وإذ كانت هي أصغر الأعضاء الواقعة في نهاية الجسد كانت تسويتها كناية عن تسوية جميع الجسد لظهور أن تسوية أطراف الجسد تقتضي تسوية ما قبلها»، التحرير والتنوير، ٤٣٥/١٥.

- الثالث: خلقهم بإنعامه وسوّى بينهم في أحكامه.

- رابعاً: خلق في أصلاب الرجال، وسوّى في أرحام الأمهات.

- خامساً: خلق الأجساد فسوّى الأفهام[1].

وأشار في موضع آخر عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ (الانفطار:٧) إلى أن التسوية تحتمل ثلاثة أوجه:

- أحدها: فسوى خُلقك وعدل خِلقتك .

- الثاني: فسوّى أعضاءك بحسب الحاجة وعدلها في المماثلة لا تفضل يد على يد، ولا رجل على رجل.

- الثالث: فسواك إنساناً كريماً وعدل بك عن أن يجعلك حيواناً بهيمياً. قال أصحاب الخواطر: «سوّاك بالعقل وعدلك بالإيمان»[2].

أما الرازي، رحمه الله، فقد رأى أن: «التسوية راجعة إلى القالب ونفخ الروح إشارة إلى إبداع القوى»[3]، وذلك في معرض حديثه عن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ (الحجر:٢٩)، وذهب إلى أن: «الخلق عبارة عن تركيب القوالب والأبدان، والهداية عبارة عن إبداع القوى المدركة والمحركة في تلك الأجسام، وعلى هذا التقدير

(١) النكت والعيون، ٤/٤٠٧.
(٢) النكت والعيون، ٤/٣٩٢.
(٣) تفسير الرازي، ١٠/٤١٧.

يكون الخلق مقدماً على الهداية»[1]، ويبدو أنه التزم بحرفية تتابع الـــدلالات في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (الأعلى:١-٣)، وقد درج، رحمه الله، في تفسيره على تقوية المعنى نفسه، والانتصار له في كل الآيات التي يجد فيها دلالة على ما ذهب إليـــه، يقول، رحمه الله، في معرض تفسيره لقوله تعـــالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (الأعلى:٢-٣): «واعلم أن الخلق والهداية بهما يحـــصل جميع المنافع لكل من يصح الانتفاع عليه، فلنتكلم في الإنسان فنقول: إنـــه مخلوق، فمنهم من قال هو من عالم الخلق والجسمانيات، ومن قال هو مـــن عالـــم الأمر والروحانيات، وتركيب البدن الذي هو من عالم الخلق مقـــدم على إعطاء القلب الذي هو من عالم الأمر على ما أخبر عنـــه ســـبحانه في قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (ص:٧٢)، فالتسوية إشارة إلى تعديل المزاج وتركيب الأمشاج، ونفخ الروح إشارة إلى اللطيفة الربانية النورانية التي هي من عالم الأمر، وأيضاً قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (المؤمنون:١٢)، ولما تمم مراتب تغـــيرات الأجسام قال: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ (المؤمنون:١٤)، وذلك إشـــارة إلى الروح الذي هو من عالم الملائكة، ولا شك أن الهداية إنما تحـــصل مـــن الروح، فقد ظهر بهذه الآيات أن الخلق مقدم على الهدايـــة»[2]، ثم قـــال في

---

(١) تفسير الرازي، ٤١٧/١٠.

(٢) تفسير الرازي، ٤٨٤/١١؛ وينظر أيضا: تفسير البحر المحيط، ٣٠٣/٦.

موضع آخر بعد تفسيره لقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (الأعلى:١-٣): «وهو في الحقيقة دليل شريف، لأن الإنسان له جسد وله روح، فالاستدلال على وجود الصانع بأحوال الجسد هو الخلق، والاستدلال بأحوال الروح هو الهداية»(١).

من كل ماسبق، نخلص إلى القول: إن أغلب المفسرين، رحمهم الله، لم يحافظوا لمفهوم التسوية على كماله وشموله الذي أوضحناه في مقدمة هذا المبحث، فأغلب النقول التي أوردناها تُقصر التسوية على الجانب المادي، وترى أن التعبير القرآني يستعمل مصطلح «الهداية» للدلالة على تسوية الروح والباطن، أما التسوية فهي خاصة بالجانب المادي لاغير. والغريب في الأمر أنه لم يسلم من هذا الفهم حتى العلامة الطاهر بن عاشور الذي يقرر أن: «الاستدلال على وجود الخالق وكماله بإيجاد الأجساد وما فيها هو الخلق، والاستدلال عليه بنظام أحوال الأرواح وصلاحها هو الهداية»(٢)، كما أن الرازي، رحمه الله، رأى في موضع آخر أن قوله تعالى: ﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾: «يدخل فيه إكمال العقل والقوى»(٣) وهو مايخالف قوله السابق القاضي بقصر التسوية على الجانب المادي دون المعنوي .

---

(١) تفسير الرازي، ٢٧٧/٨؛ ينظر أيضا: ابن عادل، تفسير اللباب، ٤٦٨/٨، فقد أورد التعبيرات نفسها والمعاني عينها، وكأنه نقل عنه. وينظر أيضا تفسير النيسابوري، ٢٥٢/٤.

(٢) التحرير والتنوير، ٤٧٨/٦.

(٣) تفسير الرازي، ٤٦٢/١٦.

لذلك نقرر باستعمالنا للفهم الجمالي لدلالات المفاهيم ومعانيها، أن الفهم السابق الذي ألبسه المفسرون لمفهوم «التسوية» غير مسلم به في مجمل ما قدموه من شروح وتوضيحات، مع تقديرنا لجهودهم وآرائهم، إذ إن السياق القرآني يحتفظ لهذا المفهوم بدلالة تتوافق وماصْدَقَهُ والمراد منه، فالشيء السوي هو المكتمل في مظهره ومخبره، في ظاهره وباطنه، في تمظهراته البرانية، وتجلياته الباطنية على السواء. يتعزز هذا الفهم أكثر عندما نرى أن القرآن الكريم كما ينسب التسوية إلى الخلق: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ (الأعلى:٢)، ينسبها أيضا إلى النفس: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾[1]، وعليه فالتسوية في الإطلاق القرآني تشمل دفعة واحدة الجسد والروح، الظاهر والباطن، أي بكلمة واحدة، تشمل كل المكونات الداخلية والخارجية للشيء الموصوف بالتسوية، لهذا لم ينسب هذا اللفظ في القرآن الكريم إلى الإنسان لعدم قدرته على النفاذ إلى جوهر الأشياء وعمقها، واكتفائه بالأبعاد الخارجية في الحكم على الأشخاص والمواقف والتصرفات ، لكن بالمقابل نسب البيان القرآني التسوية إلى الباري جل وعلا لأنه وحده القادر على

(١) أي: «خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة»، كما في تفسير ابن كثير، ٤١١/٨؛ أو: «سوى خلقها وعدله» تفسير القرطبي، ٧٥/٢٠؛ أو: «عدّل خلقها وسوّى أعضاءها»، كما في تفسير البغوي، ٤٣٨/٨؛ أو: «سَوَّى خَلْقَهَا وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ شَيْئًا»، كما في تفسير ابن أبي حاتم، ٤١٤/١٢؛ أو «أي أنشأها وأبدعها مستعدة لكمالها وذلك بتعديل أعضائها وقواها الظاهرة والباطنة، والتنكير للتكثير وقيل للتفخيم»، كما في تفسير الألوسي، ٤٦٨/٢٢.

إيداع الجمال في الظاهر والباطن في كل ماأبدعه وسواه، وهو وحده القادر على رؤية باطن كل شيء وظاهره، قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ[1] وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ (الحجر:٢٩)، وقال سبحانه: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ (الكهف:٣٧)، وقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ (الانفطار:٧)، وقال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٩)، إلى غير ذلك من الآيات الكريمات الدالة على شمول لفظ التسوية وعمومه لظاهر الأشياء وباطنها، عمومٌ يشمل دفعة واحدة المكونات الجمالية لهاته الأشياء، إذ إن منطوق التسوية ومفهومها لا يحيل إلا على الجمال الذي يدعونا الخالق إلى اكتشافه في الآفاق والأنفس، وفي كل مايحيط بالإنسان من كائنات وموجودات.

إن مفهوم «التسوية» بالفهم الذي قدمناه أعلاه، يضعنا أمام حقيقة مهمة يغفل عنها الكثيرون، وهي المتعلقة بفرادة الطرح الجمالي للقرآن الكريم، الذي يستهدف الجمال أنى وُجد، ويتتبعه في كل التجليات، حتى

---

(١) التحرير والتنوير، ٧/٤٧٦.
والتسوية: تعديل ذات الشيء. وقد أطلقت هنا على اعتدال العناصر فيه واكتمالها بحيث صارت قابلة لنفخ الروح، و﴿سويته﴾ معناه: كملته وأتقنته حتى استوت أجزاؤه على ما يجب المحرر الوجيز، ٤/١٢٨. أو إن المراد بقوله تعالى: ﴿فإذا سويته﴾ صورته بالصورة الإنسانية، وقد كان قبل بدون أعضاء، كما أن الجنين في البطن بلا أعضاءٍ ثم تكون، أو تسويته تعديل طبائعه. تفسير أطفيش، ٥/١١ .

الخفي منها، وهو الأمر الذي نلحظه متحققا بروعة كاملة مع مفهوم «التسوية»، الذي نعتبره مفتاحا لبيان الفرق الظاهر بين المدرسة الجمالية الإسلامية والمدرسة الغربية، التي تحتفي بالجمال، وتتبع الجمال، وتنشد الجمال، وتشيد له الأبراج والتماثيل، لكن من زاوية برانية في الغالب الأعم، الشيء الذي يحتم على دارسي الأدب الإسلامي والمنافحين عنه، الكشف عن هاته المعاني وإبرازها للدارسين والمهتمين، في أفق بناء فهم جمالي قرآني مؤسس على معطيات علمية مؤثثة بالدليل، مقنعة بالبرهان، وموشاة بالجمال، في صياغة أدبية تقدر الجمال، وتدعو إليه، وتربي ذوق الإنسان، وتُرهف سمعه، ليرى ويسمع ويتملى الجمال، فيعيش على وفقه الإنسان في وفاق تام مع نفسه ومع الكائنات من حوله، وتلك هي دعوة القرآن، وغاية دعوات الرسل والأنبياء عليهم السلام.

الفصل الثاني

الرؤية الجمالية في القرآن الكريم

خلاصة تركيبية

خلصنا في الفصل السابق من هذا البحث، إلى أن الرؤية الجمالية في القرآن الكريم، تتأسس على مجموعة من المفاهيم، كل واحدة منها يمكن أن تشكل حقلا دلاليا مستقلا، يمد الباحث بمساحات لا متناهية من النظر والتأمل، وتسعف الناظر الحصيف بإشارات هادية، ومعطيات بانية، لما يمكن أن يكون المدماك الأساس لعلم جمال قرآني، ينطلق من الأسس المعرفية القرآنية بعد اكتشافها و تبويبها وتأصيلها، ثم يعود إلى المتن القرآني ذاته، لإبراز التجليات الجمالية الكامنة فيه، وإظهارها على النحو الذي يليق بقدسية هذا الكتاب، واستنباط الدلالات الربانية والقصود الروحية، الثاوية خلف هاتيك التجليات، والتي نرى أنها مقصودة بالاعتبار عند الشارع الحكيم.

إن المفاهيم الأربعة التي حللناها في السابق[1]، يمكن اعتبارها ركائز أساسية لعلم الجمال القرآني، ومن شأن تغييب واحدة منها وتحييدها عند التحليل، أن يخل بنصاعة الرؤية وشموليتها، ويشوش الصورة الجمالية، التي نرى أن المفاهيم الأربعة، تمدها بالضياء، وتظهر جوانب خفية لا يمكن الوصول إليها، دون تُكأة على هاته المفاهيم، التي يرى الباحث «توشيهيكو إيزوتسو»[2]، أن كل واحدة منها يعتبر «مفهوم بؤرة»[3]، يمكن

---

(١) «الجمال»، «الزينة»، «الحسن» و«التسوية».

(٢) توشيهيكو إيزوتسو(١٩١٤-١٩٩٣): ولد في طوكيو. درّس في جامعة «كيو» وفي معهد الدراسات الإسلامية في جامعة مكجيل - كندا وفي المعهد الملكي لدراسة الفلسفة ـ إيران. من منجزاته ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اليابانية، ومن أعماله:
The Concept and Reality of Existence; The Concept of Belief in Islamic Theology; A Comparative Study of the Key Philosophical Concepts in Sufism and Taoism; Ethico-Religious Concepts in the Qur'an (2 volumes), and The Structure of the Ethical Terms in the Koran.

(٣) يرى «توشيهيكو إيزوتسو»، أن «الكلمة البؤرة» أو «المفهوم البؤرة»، مصطلح دلالي يعني عند إطلاقه: «كل كلمة ذات أهمية استثنائية، يتجمع حولها مجال مفهومي أو حقل دلالي محدد ومستقل نسبياً ضمن المعجم ككل، بكلمة أخرى، هو مركز مفهومي لقطاع دلالي مهم من المعجم القرآني، يشتمل على عدد محدد من الكلمات المفتاحية، التي تؤلف مجتمعة حقلاً دلالياً رئيسياً». تنظر الترجمة العربية لكتاب «الله والإنسان في القرآن، البعد الدلالي للرؤية الكونية العالمية»، للدكتور «هلال محمد جهاد»، الصادرة عن المؤسسة العربية للترجمة، وكذلك الورقة التي قدمها الدكتور «هلال محمد جهاد»، للمؤتمر الثاني للتحيز بعنوان «حوار الحضارات والمسارات المتنوعة للمعرفة»، سنة ٢٠٠٧م، والتي وسمها بـ: «جماليات القرآن: مشروع فلسفة جمال عربية - إسلامية معاصرة»، ص ١٧.

الانطلاق منه لتشييد بنيان جمالي، يسمو بنسبته للقرآن الكريم، ويعلو على الحدود الضيقة، التي وضعها البشر للجمال، والعلوم المرتبطة به أصلا أو استمدادا.

ولعل الإشارة الأولى التي يجدر البدء بها في هذا الصدد، ما نلاحظه من شمول وتنوع في الرؤية الجمالية للقرآن الكريم، رؤية تلحظ الجمال وتُبديه وتكشف عنه على نحو غير مسبوق، في مجالات لم يعهد الفكر الإنساني وجودا للجمال فيها، كما هو الحال في التعبيرات القرآنية المرتبطة بـ«الصبر الجميل» و«الصفح الجميل» و«السراح الجميل»[1] و«الهجر الجميل»[2]، بل إن الرؤية القرآنية تتعدى ذلك، إلى اعتبار الجمال شأنا عاما، يعني دفعة واحدة كل الناس، على اختلاف مستوياتهم ومعارفهم وأذواقهم، ومن ثم فهو ليس حكرا على الطبقة التي تحترف الفن أو تتخذه صنعة لها ومهنة، أو تلك التي يسعفها اليسار وسعة الرزق، من التوفر على الوقت

(١) المقصود به في التعبير القرآني: «الطلاق».

(٢) هاته التعبيرات وردت في القرآن الكريم على النحو التالي: في قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف:١٨). وقوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً﴾ (يوسف:٨٣). وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً﴾ (المعارج:٥). وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (الحجر:٨٥). وقوله تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ (الأحزاب:٢٨). وفي قوله تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ (الأحزاب:٤٩). وفي قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾ (المزمل:١٠).

الكافي لتملي الجمال والاستمتاع به، أو المال اللازم لاقتناء لوحة فنية جميلة، أو زيارة معرض أو متحف أو مكان يحوي الجمال ويدل عليه.

إن الرؤية القرآنية تدعو الجميع لاكتشاف الجمال، باعتباره وسيلة للدلالة على الخالق، ولكونه أداة لاكتشاف النعم المختلفة التي أكرم الله بها الإنسان، اكتشاف تكون بدايته الاستمتاع بهاته النعم، و نهايته التلذذ بعبادة مُسبغها ومانحها، عبادة لا تنتهي روعتها، ولا تحصر تجلياتها، تماما كما لا تنتهي امتدادات الجمال في الأنفس والأكوان، ولا تحصر آفاقه في الزمان والمكان، يقول سيد قطب رحمه الله، في تعليقه على قوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ (النمل:٦٠): «حدائق بهيجة ناضرة حية جميلة مفرحة، ومنظر الحدائق يبعث في القلب البهجة والنشاط والحيوية، كما أن تأمل هذه البهجة والجمال الناضر الحي الذي يبعثها كفيل بإحياء القلوب، وتدبر آثار الإبداع في الحدائق كفيل بتمجيد الصانع الذي أبدع هذا الجمال العجيب. وإن تلوين زهرة واحدة وتنسيقها، ليعجز عنه أعظم رجال الفنون من البشر، كما أن تموج الألوان وتداخل الخطوط وتنظيم الوريقات في الزهرة الواحدة، ليبدو معجزة تتقاصر دونها عبقرية الفن في القديم والحديث»[١].

في ضوء ذلك، نفهم العبرة الجليلة من التوجيه الإلهي اللطيف المتضمن في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ (النحل:٩)، الوارد في نهاية الآية

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/٢٩٢.

الجليلة التي وقفنا عندها مليا في الفصل السابق[1]: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (النحل:٥-٩). إن هذا التوجيه مفاده، أن المقصود المعتبر من ذكر جمال الأنعام وفوائدها، هو دلالتها على مبدعها وخالقها، وكأن الحق سبحانه يقول: لا يغرنكم جمال الأنعام، ولا يلهينكم تملي ما فيها من مباهج وفوائد، عن خالقها الذي وصف نفسه بـ«الجميل».

هذا المعنى نفسه، نجده ثاويا في الموقف الجمالي القوي الذي يعرض له القرآن الكريم حكاية عن نبي الله سليمان، عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ۝ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ (ص:٣٠-٣٢)، فقد روى المفسرون أن سليمان، عليه السلام، غنم خيلا فارهة الجمال والقوة من جهاده، ولما عرضت عليه: «ظل ينظر إليها ويتمتع بجمالها حتى فاته وقت

(١) ينظر تفصيل ذلك في المبحث الأول: مفهوم الجمال في القرآن الكريم.

صلاة العصر، فأمر بها فعقرت»[1]، وهو الذي عبر عنه بقوله تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ (ص:٣٢)، ومن دلالات المسح في اللغة «القطع بالسيف»[2]، كما قال ابن كثير، رحمه الله.

إن منظر الخيل، وهي مهيأة للاستعراض، في أبهى صورة وأجمل منظر، يأخذ بالألباب، فـ«الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»[3]، ومشهدها الجميل يشغل ويلهي، لكن ليس إلى الحد الذي يفتن صاحبه عن الواجب، إذ المتعة المتحققة في مناجاة الله تعالى، والقيام بين يديه بالواجب، أعظم وأجل من كل المتع والملذات، لذلك كان رسول الله ﷺ، ينادي بلالا بالمسارعة لرفع نداء الصلاة: «أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلالُ»[4]، طلبا للراحة، ونشدانا للجمال الروحي الذي يستشعره العابد المتبتل في محراب الصلاة.

---

(١) ذهب بعض المفسرين القدامى إلى التشكيك في رواية قتل نبي الله سليمان للخيل التي ألهته عن ذكر الله، ورأوا أنه أخذ يمسح أعناقها وسوقها ترفقاً بها وحبا لها، ومنهم ابن حزم والرازي والطبري، وساقوا لذلك عدة مسوغات، ينظر تفصيل ذلك في: أبي حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: ٧٧٥هـ)، تفسير اللباب في علوم الكتاب، ١٣/٣٦٦؛ وذهب بعض المفسرين المعاصرين إلى الإقرار بصعوبة ترجيح رواية على الأخرى، كما فعل إبراهيم القطان في تيسير التفسير، ٣/١٦٣.

(٢) ينظر تفسير ابن كثير، ٣/٣٤.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب «الجهاد»، باب: الخيل معقود على نواصيها الخير إلى يوم القيامة، ٦/٥٤؛ ومسلم في صحيحه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «الْبَرَكَةُ فِي نَوَاصِي الْخَيْلِ»، وعن جرير، رضي الله عنه، مرفوعا: «الْخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، الجزء٦، الباب ٢، ص ٩٥.

لذلك، لما أحس نبي الله سليمان، عليه السلام، وهو مأخوذ بجمال الخيل، مفتون بروعتها وتألقها، لما أحس بخروج تجربته الجمالية هاته عن حدود قصد الشارع، آب إلى ربه عز وجل: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، ورجع إليه تعالى، وغاب عن رؤية جمال الخيل في رؤية جمال محبوبه وربه، فكان أن أبدله الله بخير وأسرع منها، إنها الريح التي سخرها الله له، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ۝ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ۝ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ (ص:٣٣-٤٠).

تأسيسا على ذلك، فإن السياقات القرآنية التي تتحدث عن الجمال وآفاقه، لا تخرج عن الإطار السابق، وهو التذكير الدائم والربط الشديد بين آيات الجمال ومبدعها، بين تجليات الجمال ومنشئها، فالله تعالى هو أصل الجمال الذي يجب التوجه إليه، عبر ما بثه في الكون من شواهد وتجليات: ففي سورة «ق» دعوة صريحة لإعمال النظر الجمالي في مشهدين جليلين من كبريات المشاهد الكونية التي يتجلى فيها بديع صنع الله وجميل خلقه؛ مشهد السماء والأرض: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ (ق:٦-٨).

إن هذه الدعوة الجمالية مؤسسة على ضرورة اكتشاف الزينة التي تتميز بها السماء، فهي كما ذهب إلى ذلك أغلب المفسرين[1]، موشاة بالمصابيح: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ (الملك:٥)، وبالقمر: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ (نوح:١٦)، وبالشمس: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ (نوح:١٦)، وبالعرش، وبالكرسي، وباللوح المحفوظ، وبالقلم.

إن التأمل الأولي في مكونات الزينة التي تؤثث المشهد الجمالي للسماء، يضعنا أمام حقيقة جديرة بالتنويه، وهي أن الجمال الحقيقي لا يتأسس على الأبعاد المادية فقط، بل يجب أن يتعداها إلى مكونات أخرى، تسمها بالتميز والفرادة، ولذلك يجب ألا نقتصر في اكتشافنا وتأملنا الجمالي للسماء، على المصابيح والقمر والشمس، بل إن سر جمال السماء، يكمن في ما تحويه من خصوصيات تختزن الجمال وتدل عليه، بل تنتجه وتشيعه في الآفاق والأنفس، وهذا متحقق بدرجة عالية، بمجرد استحضار المرء وذكره لـ«العرش» و«الكرسي» و«اللوح المحفوظ» و«القلم»، وهي مكونات لا تحيل فقط على جمال الله تعالى، بل على جلاله وعظمته وكبريائه بدرجة أولى وأخص، ونعتقد أن هذا المعنى هو المقصود بالاعتبار في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ (ص:٢٧)، فهي: «قِبْلَة

---

(١) ينظر تفصيل ذلك مثلا في: الرازي، مفاتيح الغيب؛ ابن عادل، تفسير اللباب في علوم الكتاب، في تفسيرهما لسورة ق، الآيات: من ٦ إلى٨.

الدعاء، إذ الأيدي تُرفع إليها، والوجوه تتوجّه نحوها، وهي منـزل الأنوار، ومحل الضياء والصّفاء والطهارة، والعصمة من الخلل والفَسَاد»[1].

لذلك، إذا كانت السماء بهذا الوصف، وجب أن تكون آية في الجمال، بحيث لا يرد فيها عيب، ولا يلحظ فيها فتق، وهذا ما تنبه إليه الآية الشريفة: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ (ق:٦)[2]، وذلك راجع: «لـملاستها وسلامتها من كل عيب وخلل»[3]، وتحقيق لما في جمالها من: «معاني الاستواء والحكمة والدقة في الصنع»[4]، لدرجة أن الناس يشاهدونها كأنها كرة متصلة الأجزاء ليس بين أجزائها تفاوت أو تزحزح يشوه تألقها في الفضاء، رغم عوادي الزمان والحركة الدائبة التي لا تعرف السكون في جنباتها وأرجائها، «وهذا من عجيب الصنع إذ يكون جسم عظيم كجسم كرة الهواء الجوي مصنوعا كالمفروغ في قالب. وهذا مشاهد لجميع طبقات الناس على تفاوت مداركهم، ثم هم يتفاوتون في إدراك ما في هذا الصنع من عجائب التئام كرة

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي، عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السماء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا باطلا ذلك ظَنُّ الذين كَفَرُواْ﴾.

(٢) الفروج: جمع فرج، وهو الخرق والشق، أي ليس فيها فروج وشقوق. الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ١٨٢/٢. ونظير هذه الآية قوله في سورة الملك: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ إلى قوله: ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ (الملك:٣).

(٣) تفسير حقي، ١٠٦/١٤.

(٤) الشيخ عطية محمد سالم، تتمة أضواء البيان، ٣٢٢/١.

الجو المحيط بالأرض ولو كان في أديم ما يسمى بالسماء تخالف من أجزائه لظهرت فيه فروج وانخفاض وارتفاع»[1].

هكذا يعيش المؤمن في عوالم لا متناهية من الجمال، فحيثما ولى وجهه يجد آيات الله تناديه وتدعوه لاكتشاف النور والضياء الكامن فيها، فالأرض التي يعيش فيها آية متجددة العطاء، معين جمالها لا ينضب، بل إنه يمتد بامتدادها، ويتجذر في كيانها تجذر الجبال الرواسي، ويتنوع تنوع الأزواج البهيجة التي أنبتها الله فيها من كل صنف ونوع: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ (ق:٦-٨) [2]، ومثله قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فصلت:٣٩)، إنه مشهد يستحق التأمل والنظر، وفيه تبدو الأرض ذابلة شاحبة، فإذا جاء الغيث استنفرت طاقتها لتكشف عن زينتها، واهتزت فرحا وحبورا لقدرتها على إمتاع الناس ومؤانستهم، بإخراج كنوزها المختلفة الألوان، لذلك نذهب مع العلامة اليوسي، رحمه الله، إلى أن الآية

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٣٨/١٣.

(٢) قال صاحب التحرير والتنوير: «والبهيج يجوز أن يكون صفة مشبهة، يقال: بهُج بضم الهاء، إذا حسن في أعين الناظرين، فالبهيج بمعنى الفاعل كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ (النمل:٦٠)، ويجوز أن يكون فعيلا بمعنى مفعول، أي مَبهج به على الحذف والإيصال، أي يسر به الناظر، ومنه الابتهاج المسرة»، التحرير والتنوير، ٢٤٠/١٣.

السابقة تتضمن استعارة تمثيلية، وفيها شبَّه الحق سبحانه: «حـــال جدوبـــة الأرض وخلوها من النبات ثم إحياء الله تعالى إياها بـــالمطر وانقلابهـــا مـــن الجدوبة إلى الخصب وإنبات كل زوج بهيج، بحال شخص كئيب كاســـف البال رث الهيئة لا يؤبه به، ثم إذا أصابه شيء من متاع الدنيا وزينتها تكلف بأنواع الزينة والزخارف فيختال في مشيه زهواً، فيهتز بالإعطـــاف خـــيلاء وكبراً، فحذف المشبه واستعمل الخشوع والاهتزاز دلالة على مكانه ورجح اعتبار التمثيل»[1].

بعد هذا، نعود لنؤكد أن هذا الحشد الهائل من التصوير الجمالي الرائق، الذي أمسكنا بـــملمح يسير منه، إنـــما جاء لحقيقة واحدة، وهي اعتباره: ﴿تَبْصِرَةً[2] وَذِكْرَىٰ[3] لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ (ق:٨)، إنه: «وصف يفيد ذكره في تقوية الاستدلال على دقة صنع الله تعالى، وإدماج الامتنان عليهم بـــذلك ليشكروا النعمة ولا يكفروها بعبادة غيره»[4]، إضافة إلى أنه «برهان قـــاطع آخر على البعث»[5].

---

(١) تفسير الألوسي، ٢٠٤/١٨.

(٢) «والتبصير: جعل المرء مبصرا وهو هنا مجاز في إدراك النفس إدراكا ظاهرا للأمر الذي كان خفيا عنها فكأنها لم تبصره ثم أبصرته»، التحرير والتنوير، ٢٤١/١٣.

(٣) «والذكرى اسم مصدر ذكر، إذا جعله يذكر ما نسيه. وأطلقت هنا على مراجعة النفس ما علمته ثم غفلت عنه»، التحرير والتنوير، ٢٤١/١٣ .

(٤) التحرير والتنوير، ٢٤٠/١٣.

(٥) أضواء البيان، ٢٧٨/٤.

إن الجمال هنا سبيل يمهد لمعرفة الحق: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ۝ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ (الحج:٦-٧)، معرفةٌ تنطلق من التسليم لله تعالى بمطلق القدرة على التصرف في الكون، إماتة وإحياء، وتنتهي بالإيمان الذي لا يخالطه شك في صحة البعث والنشور، وأن بعد الحياة الدنيا، قبر وحساب، وبعث وجزاء، وخلود لا موت بعده أبدا.

هاهُنا وقفة لطيفة، يجب التنبه إليها، وهي المرتبطة بالأبعاد الروحية والمقاصد الغيبية للجمال في القرآن الكريم، فالجمال ليس مطلوبا لذاته، ولكنه وسيلة تسعف المؤمن المنيب لمعرفة الحق، وتهديه برفق إليه، وتحضه على العيش مع (الغير) على وَفقه: «وخُص العبد المنيب بالتبصرة والذكرى، وإن كان فيما ذكر من أحوال الأرض إفادة التبصرة والذكرى لكل أحد، لأن العبد المنيب هو الذي ينتفع بذلك فكأنه هو المقصود من حكمة تلك الأفعال، وهذا تشريف للمؤمنين وتعريض بإهمال الكافرين التبصر والتذكر»[1].

في ضوء هذا الفهم، يمكن أن نفسر الآيات التي تدعوا إلى تحريم قتل النفس بغير حق، تفسيرا جماليا، مؤداه أن قتل النفس البشرية، هو تعد صارخ على جزء من تجليات الجمال الإلهي، التي أبدعها في الإنسان:

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٤١/١٣.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ (التغابن:٣)، لذلك حرم الله تعالى قتله بغير حق، أو إيذاءه أو احتقاره. والقرآن الكريم مليء بالتوجيهات التي تنصح بالمحافظة على هذا المخلوق الجميل، قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة:٣٢). وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الأنعام:١٥١).

وفي أحاديث النبي ﷺ ما يزكي ذلك ويعضده، قال ﷺ: **«الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ وَلا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**[1]. وقال ﷺ: **«إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلا تَحَسَّسُوا وَلا تَجَسَّسُوا،**

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب «المظالم»، باب: لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، ٣/١٦٨، الحديث رقم ٢٤٤٢؛ والإمام أحمد، ٢/٩١، الحديث رقم ٥٦٤٦؛ و«الإمام مسلم»، ٨/١٨، الحديث رقم ٦٦٧٠؛ و«أبو داود»، الحديث رقم ٤٨٩٣؛ و«الترمذي»، الحديث رقم ١٤٢٦؛ و«النسائي» في «الكبرى»، الحديث رقم ٧٢٥١.

وَلا تَنَاجَشُوا وَلا تَحَاسَدُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا»[1].

إن الفهم الذي درجت عليه كتب التفسير والحديث لهاته النصوص، هي أن العلاقة بين بني البشر تتأسس على منظومة متكاملة من المبادئ والقيم، والأوامر والنواهي، لكن الفهم الذي نقترحه لها، يتجاوز ذلك كله، ويرفع السلوكات المطلوب القيام بها إلى درجة اعتبارها تصرفات جمالية، تكشف عن خلفية صاحبها المحترمة للجمال، العاشقة لتأطير تصرفاتها ومواقفها، بل وانفعالاتها وردود أفعالها على وفقه، وتعكس رهافة حسه الجمالي، وشفافية روحه، التي حملها حب الجمال الإلهي على احترام حياة الناس، والمسارعة إلى إسعادهم وتفريج الكرب عنهم، وحسن الظن بهم، وكم هو كبير الفرق بين من يُقدم على هاته المواقف، وهو محكوم بهاجس الرهبة والخوف، أو الأمر والنهي، وبين من يقدم عليها مستمتعا بما فيها من تجربة جمالية، تحضه دائما على إشاعة الخير والإكثار منه، وما الخير والجمال إلا وجهان لعملة واحدة، يتكاملان في العطاء، ويتماهيان في الغاية والمقصد.

تأسيسا على ذلك، نخلص إلى أن دلالة الجمال في القرآن الكريم واحدة، والجهة التي يخدمها واحدة، والقصد الذي يتوجه إليه واحد، والبغية التي ينشدها في كل ذلك، هي منشئُ الجمال، ومُسبغه ومُسبله على الكائنات، عبادة له، وخضوعا لإرادته سبحانه.

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب «الأدب»، باب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا﴾، ٥/٢٢٥٤ حديث رقم: ٥٧١٩؛ ابن حنبل في مسنده ٢/٢٨٨، حديث رقم: ٧٨٦٢.

الفصل الثالث

علم الجمال الإسلامي

بين الهدي النبوي واجتهادات علماء الإسلام

المبحث الأول: الجمال في الهدي النبوي دعوة وتطبيقاً

«إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»[1]، بهذا الحديث الشريف يفتح الرسول ﷺ أبوابا مشرعة أمام المسلم، لنشدان الجمال، وحب الجمال، والسعي لطلب الجمال، وإنتاج الجمال، وإشاعته بين الناس.

والملاحظ، إنه على الرغم من وضوح الحديث، ودلالته الواضحة على الوعي الجمالي الإسلامي المتميز، إلا أنه لم يحظ بالعناية اللازمة، والدراسة الوافية، باعتباره مصدرا لتأصيل علم الجمال الإسلامي، ودليلا على حضوره في أصول التشريع ومصادره.

---

(١) الحديث صحيح، وقد أخرجه مسلم، ١/٩٣، الحديث رقم ٩١، عن ابن مسعود؛ والإمام أحمد، ١/٤١٢، الحديث رقم ٣٩١٣؛ وأبو داود في سننه، الحديث رقم ٤٠٩١؛ وابن ماجه، الحديث رقم ٥٩ و٤١٧٣؛ والترمذي، الحديث رقم ١٩٩٨. ونص الحديث: «عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ».

لذلك، إذا كان الله الجميل يحب الجمال، فمن الواجب على الإنسان، باعتبار عبوديته لله، أن يحب الجمال ويتصف به، ولهذا نجد في دواوين السنة النبوية المشرفة رصيدا مهما من الأحاديث، التي تشرح الحديث الذي بدأنا به هذا المبحث، تفصيلا لمدلولاته، أو تنبيها إلى ما به يكون الجمال ويتحقق في المظهر والمخبر.

ولعل أول مكان يجب أن يتحلى فيه الجمال، هو المسجد لكونه فضاء ماديا ومعنويا لصياغة الجمال الروحي للإنسان، لذلك نهى النبي ﷺ، أن يذهب الرجل إلى المسجد في ثياب مهنته، وندب المسلم أن يتخذ «ثَوْبَيْنِ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ سِوَى ثَوْبَيْ مِهْنَتِهِ»[1]، تحقيقا لقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ (الأعراف:٣١)، وقد أخرج ابن ماجه عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَحْسَنَ مَا زُرْتُمُ اللَّهَ بِهِ فِي قُبُورِكُمْ وَمَسَاجِدِكُمُ الْبَيَاضُ»[2]، وأخرج أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال : قال رسول الله ﷺ: «الْبَسُوا مِنْ ثِيَابِكُمُ

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، الباب ٢١٣، وابن ماجه في كتاب الإقامة، الباب٨٣، ينظر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، ٢٨٢/٦.

(٢) أخرجه ابن ماجه، ١١٨١/٣، كتاب اللباس، باب البياض من الثياب، الحديث رقم ٣٥٦٨؛ وابن حجر في «تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير»، ١٧٠/٢، الحديث رقم ٦٦١.

الْبَيَاضَ فَإِنَّهَا مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ، وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ»[1]، وأخرج الترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْبَسُوا مِنْ ثِيَابِكُمُ الْبَيَاضَ فَإِنَّهَا أَطْهَرُ وَأَطْيَبُ، وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوْتَاكُمْ**»[2]، وأخرج الشافعي وأحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والبيهقي عن أبي هريرة، رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قال: **لا يُصَلِّيَنَّ أَحَدُكُمْ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ لَيْسَ عَلَى عَاتِقِهِ مِنْهُ شَيْءٌ**»[3]، وأخرج أبو داود والبيهقي عن بريدة، رضي الله عنه، قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يصلي الرجل في لحاف لا يتوشح به، ونهى أن يصلي الرجل في سراويل وليس عليه رداء»[4]، وأخرج الطبراني والبيهقي في سننه عن ابن عمر، رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ، فَلْيَلْبَسْ ثَوْبَيْهِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَحَقُّ أَنْ يُزَيَّنَ لَهُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ ثَوْبَانِ، فَلْيَأْتَزِرْ إِذَا صَلَّى، وَلا يَشْتَمِلْ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ اشْتِمَالَ الْيَهُودِ**»[5].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد، ٥/٢٠، الحديث رقم (٢٠٤٩٨)؛ والنسائي، المجتبى، ٤/٣٤؛ و٨/٢٠٥، الحديث رقم ٥٣٢٢. قال الحافظ في الفتح، ٩/٣٩: صححه الترمذي.

(٢) قال الحافظ في «الفتح»، ٣/ ٣٥: رواه أصحاب السنن، وصححه الترمذي والحاكم.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح عن أبي عاصم عن مالك، ح ٣٠١٦؛ البيهقي في سننه الكبرى ٢/٢٢٤، حديث رقم: ٣٠١٩؛ وأحمد، ٢/٢٤٣، ح٧٣٠٥؛ وابن أبي شيبة، ١/٣٤٩ ح٣٥٠٩.

(٤) أخرجه الحاكم في مستدركه، ١/٣٨٠، الحديث رقم: ٩١٤؛ والنيسابوري في المستدرك على الصحيحين، ١/٣٧٩، الحديث رقم ٩١٤؛ والبيهقي في سننه الكبرى، ٢/٢٣٦، الحديث رقم ٣٠٩٣.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ٢/١٤٨، الحديث رقم ٦٣٥٦؛ والطبراني في المعجم الأوسط، ٦/١٣٢، الحديث رقم ٦٠٠٨؛ وأبو داود في سننه، ١/١٧٢، الحديث رقم ٦٣٥.

«الزينة» و«الحسن» و«الطهارة» و«الطيب»[1] و«البياض»، هذه هي المفاهيم التي تؤثث علاقة المسلم بالمسجد، وهي نفسها التي تؤطر علاقته مع نفسه، لنرجع إلى صيغة أخرى لحديث: «**إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ**»، وهي صيغة أخرجها الإمام أحمد عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال : قال رسول الله ﷺ: «**لا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ، وَلا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي لَيُعْجِبُنِي أَنْ يَكُونَ ثَوْبِي غَسِيلاً، وَرَأْسِي دَهِينًا، وَشِرَاكُ نَعْلِي جَدِيدًا، وَذَكَرَ أَشْيَاءَ حَتَّى ذَكَرَ عِلاقَةَ سَوْطِهِ، أَفَمِنَ الْكِبْرِ ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: **لا، ذَاكَ الْجَمَالُ، إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، وَلَكِنَّ الْكِبْرَ مَنْ سَفِهَ الْحَقَّ وَازْدَرَى النَّاسَ**».

قال ابن كثير في تفسيره بعد ذكر هذه الرواية عن عليّ، رضي الله عنه: «وهذا محمول على أن من أحبّ ذلك لا لمجرّد التجمل، فهذا لا بأس به»[2]، أما ابنُ رجب، رحمه الله، فيعلق قائلا: «لم يزلْ علماءُ السلَفِ يلبسون

(١) وقد أمرَ النبيُّ ﷺ المسلمَ أن يتطيَّبَ «ولو من طيبِ امرأته!» كما روى مسلمٌ، رحمه الله، في بَاب «الطِّيب وَالسِّوَاك يَوْمَ الْجُمُعَةِ» عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «غُسْلُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ وَسِوَاكٌ وَيَمَسُّ مِنْ الطِّيبِ مَا قَدَرَ عَلَيْهِ وَلَوْ مِنْ طِيبِ الْمَرْأَةِ». صحيح مسلم، ٣١٣/٤، الحديث رقم ١٤٠٠؛ وأخرج البخاري في باب «الطِّيبِ لِلْجُمُعَةِ» عن عَمْرِو بْنِ سُلَيْمٍ الأَنْصَارِيُّ قَالَ: أَشْهَدُ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: «أَشْهَدُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: الْغُسْلُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ وَأَنْ يَسْتَنَّ وَأَنْ يَمَسَّ طِيبًا إِنْ وَجَدَ». ابن حجر، فتح الباري، ٢٨٣/٣.

(٢) تفسير ابن كثير، ٢٥٩/٣.

الثيابَ الحسنــــة، ولا يَعُدُّون ذلك كِبْراً»[1]. حـــتى لو بلغت قيمة اللبـــاس ما بلغت من النفاسة كما قال ابنُ حجر، رحمه الله: «إن من قصد بالملبوس الحسن إظهار نعمة الله عليه، مستحضرا لها شاكرا عليها غير محتقر لمن ليس له مثله؛ لا يضره ما لبس من المباحات ولو كان في غاية النفاسة»[2].

نقف في الحديث السابق عند تفاصيل مكتنزة بالدلالات، تخدم الغرض الذي نحن بصدده من تتبعنا للتجليات الجمالية في الحديث النبوي الشريف، فعلى الرغم من هيبة مجلس رسول الله ﷺ، وهيبة من فيه، راح الـــصحابي الجليل، يعدد لرسول الله ﷺ الجوانب الشخصية التي يحب أن يكون فيهـــا جميلا، بدءا من ثوبه النظيف، ورأسه المدهون، وصـــولا إلى شـــراك نعلـــه الجديد، ثم استطرد في: «ذكر أشياء حتى ذكر علاّقـــة ســـوطه» كمـــا في الحديث. إنها جزئيات يصعب تصور مناقشتها في حضرة خـــاتم الأنبيـــاء، وتفاصيل يظن أغلب الناس، خاصة مع هيمنة التـــصور التجزيئـــي للـــدين والتدين، أن مجرد إثارتها، استصغار لحرمة مجلس رسول الله ﷺ، وحط مـــن قيمة من فيه، لكن رسول الله ﷺ، داعية الجمال والمبشر بـــدين الجمـــال، والمبلغ عن «الجميل»، يقطع هاته التخرصات، عندما يرفض اعتبار مطالـــب الصحابي الجليل الجمالية، من الكبر والخيلاء، ويقول له، في لـــمسة كلـــها تحريض وتشويق: «ذاك الجمال».

---

(١) ابن حجر، فتح الباري، ١٠٣/٣.
(٢) ابن حجر، فتح الباري، ٢٥٩/١٠.

لقد التقط علماء الإسلام من فقهاء ومفسرين هاته الإشارة، وصاروا يوشونها بتعليقاتهم التي تسلط مزيدا من الضوء على التربية الجمالية التي كان رسول الله ﷺ يمارسها مع صحابته الأخيار[1]، قال ابن بطال، رحمه الله: «مَن أحَبَّ ذلك لِيَتعظَّمَ به مِن سِواه مِن الناس مِمَّنْ ليس له مثلُه؛ فاختال به عليهم واستكبر؛ فهو داخلٌ في عِدةِ المُستكبِرين في الأرض بغير الحق، ولَحِقَته صِفةُ أهلِه، وإنْ أحَبَّ ذلك سُرُورًا لِجَوْدته وحُسْنه، غيرَ مُريد به الاختِيال والتكبُّر؛ فإنه بعيدُ المعنى ممن عناه الله تعالى بقوله: ﴿ لَا يُرِيدُونَ

(١) كانت تصرفات رسول الله ﷺ مع صحابته تشي بهذا القصد، وتكشف عن الحضور القوي للوعي الجمالي في توجيهات رسول الله ﷺ، حتى في أدق التفاصيل وأبسطها، من ذلك مثلا أنه كان يعجبه جمال الخضاب، بأن يكسى به بياض الشيب، وأمر بذلك أبا قحافة في يوم الفتح، كما روى النسائي عن جابر، رضي الله عنه، قال: «أُتِيَ النبيُّ ﷺ بِأَبِي قُحَافَةَ وَرَأْسُهُ وَلِحْيَتُهُ كَأَنَّهُ ثَغَامَةٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: غَيِّرُوا أَوِ اخْضِبُوا». سنن النسائي، ١٠/١٦، ح٥١٤٧. و«(ثغامة) بمثلثة مفتوحة وغين معجمة ثمر أبيض لنوع من النبات». حاشية السندي على سنن النسائي، ٤١/٧. وقد بين ابن ماجه في روايته أن ذلك كان يوم الفتح: «جِيءَ بِأَبِي قُحَافَةَ يَوْمَ الْفَتْحِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَكَأَنَّ رَأْسَهُ ثَغَامَةٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ فَلْتُغَيِّرْهُ وَجَنِّبُوهُ السَّوَادَ». سنن ابن ماجه، ٤٩٩/١٠، حديث ٣٦١٤؛ وأخرجه أحمد بأتم من ذلك، نورده لما فيه من أدب نبوي رفيع، يكشف المزاوجة بين الجمال المادي والمعنوي، قال: « فَلَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكَّةَ وَدَخَلَ الْمَسْجِدَ أَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ بِأَبِيهِ يَعُودُهُ فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: هَلا تَرَكْتَ الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا آتِيهِ فِيهِ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هُوَ أَحَقُّ أَنْ يَمْشِيَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَمْشِيَ أَنْتَ إِلَيْهِ، قَالَ: فَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ مَسَحَ صَدْرَهُ ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَسْلِمْ، فَأَسْلَمَ وَدَخَلَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَأْسُهُ كَأَنَّهُ ثَغَامَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: غَيِّرُوا هَذَا مِنْ شَعْرِهِ». مسند أحمد ٣٩١/٥٤.

عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًاۚ﴾»[1]، وقال ابن بطال، رحمه الله: «في قول ابن عباس: إنه مباح للرجل اللباس من الحسنِ والجمال في جميع أموره إذا سلِم قلبه من التكبُّرِ به على من ليس له مثل ذلك من اللباس»[2]، لذلك روى البخاري، رحمه الله، في مطلع كتاب (اللباس) باب قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ وقال النبي ﷺ: «كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلا مَخِيلَةٍ»[3]، وقال ابن عباس، رضي الله عنهما: «كُلْ مَا شِئْتَ وَالْبَسْ مَا شِئْتَ مَا أَخْطَأَتْكَ اثْنَتَانِ سَرَفٌ أَوْ مَخِيلَةٌ»[4]، كما رواه ابن ماجه، رحمه الله، من طريق أبي بكر بن أبي شيبة: حدثنا يزيد بن هارون أنبأنا همام عن قتادة عن

---

(١) شرح ابن بطال، ٩٢/١٧.

(٢) شرح ابن بطال، ٩٢/١٧.

(٣) قال ابنُ حَجَر رحمَه الله: «والإسراف مجاوزة الحد في كل فعل أو قول وهو في الإنفاق أشهر، وقد قال الله تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾، وقال تعالى: ﴿فلا يسرف في القتل﴾، والمخيلة بوزن عظيمة وهي بمعنى الخيلاء وهو التكبر. وقال ابن التين: هي بوزن مفعلة من اختال إذا تكبر. قال: «والخيلاء بضم أوله وقد يكسر ممدودا؛ التكبر»»، وقال الراغب: «الخيلاء التكبر ينشأ عن فضيلة يتراءاها الإنسان من نفسه، والتخيل تصوير خيال الشيء في النفس، ووجه الحصر في الإسراف والمخيلة أن الممنوع من تناوله أكلاً ولبسا وغيرهما، إما لمعنى فيه وهو مجاوزة الحد وهو الإسراف، وإما للتعبد كالحرير إن لم تثبت علة النهي عنه، وهو الراجح. ومجاوزة الحد تتناول مخالفة ما ورد به الشرع فيدخل الحرام، وقد يستلزم الإسراف الكبر وهو المخيلة». ابن حجر، فتح الباري، ٢٥٣/١٠.

(٤) صحيح البخاري، ٨١/١٨.

عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله: « **كُلُوا وَاشْرَبُوا وَتَصَدَّقُوا وَالْبَسُوا مَا لَمْ يُخَالِطْهُ إِسْرَافٌ أَوْ مَخِيلَةٌ** »[1].

نعم للجمال، ومرحبا بتجلياته في المأكل والمشرب، لكن وفق ضوابط تمنع هاته المتعة من الانحراف عن مقاصدها النبيلة، لذلك علّمَ النبيُّ ﷺ الصحابةَ والأمةَ أنْ يُفرِّقوا بين معنى الجمال، وبين الإسراف والتكبُّر؛ فأمرهم بالتوازن في حب الجمال حتى لا يُسْرِفُوا ولا يختالوا؛ فيفقد الجمال معناه ويتحوَّل إلى قُبح ترفضه الذمم السليمة والفطر النقية العاشقة للجمال في نقائه وطهره، وهذا لايتحقق إلا بالانضباط للأمر النبوي الشريف، الذي ينهى عن الإسراف والمخيلة، الإسراف بـــما هو مضر بالجمال المادي الظاهري، في البدن والـــمال، والخيلاء لأنه يشوه جمال النفس ويخالف فطرتها، التي تتألق كلما التزمت التواضع وتسربلت بقيم النبل والعفة والوفاء، يقول الموفق عبد اللطيف البغدادي: «هذا الحديث جامع لفضائل تدبير الإنسان نفسه، وفيه تدبير مصالح النفس والجسد في الدنيا والآخرة؛ فإن السرف في كل شيء يضر بالجسد ويضر بالمعيشة فيؤدي إلى الإتلاف ويضر بالنفس إذ كانت تابعة للجسد في أكثر الأحوال، والمخيلة تضر بالنفس حيث تكسبها العجب، وتضر بالآخرة حيث تكسب الإثم، وبالدنيا حيث تكسب المقت من الناس»[2].

---

(١) سنن ابن ماجه، ٤٧٠/١٠، الحديث رقم ٣٥٩٥.

(٢) ابن حجر، فتح الباري، ٣٢٣/١٦.

- إن رؤية النبي ﷺ الجمالية التي كشفنا عن بعض ملامحها في الصفحات السابقة، لا تقف عن هذا الحد[1]، بل تنطلق منه وتؤسس عليه لتهيئ النفس البشرية لاعتبار الجمال نعمة خاصة، توجيها وتنبيها[2] وتصويبا[3]، أو مباركة وتشجيعا[4] أو حفزا وتحبيبا؛ إنها منحة من الله لعباده المتقين، الذين يرون أن من الأبواب المهمة للدخول على الله تعالى،

---

(١) لا يرتبط الترغيب النبوي في الجمال في الدنيا فقط، بل يمتد ليشمل الآخرة أيضا؛ ففيها جمال الجنة الذي يصفه رسول الله ﷺ في الحديث القدسي: «عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: قَالَ اللَّهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾»، أخرجه الإمام مسلم، ١٤٣/٨، الحديث رقم ٧٢٣٧؛ والإمام أحمد، ٣٣٤/٥، الحديث رقم ٢٣٢١٤.

(٢) يروى عنه ﷺ، أنه قال لـ«أنجشة» (صحابي جليل) وهو يحدو بأمهات المؤمنين بصوت حسن جميل: «رفقا بالقوارير»، تنبيها إلى خطورة الصوت الجميل، والحداء هو قيادة العير مع التنغيم والتلحين بصوت حسن وفي إيقاع منتظم يشنف الآذان ويطرب القلوب، وقد يُميلها للشر ويفتنها.

(٣) نقل عنه ﷺ، أنه كان يشجع ويتذوق أعذب الشعر الداعي إلى القيم الفاضلة، ويقول: «الشعر بمنزلة الكلام؛ حَسَنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام»، أخرجه البخاري في الأدب المفرد، ٢٩٩/١، الحديث رقم: ٨٦٥، والدارقطني في سننه، ١٥٦/٤، الحديث رقم ٤.

(٤) كان عليه السلام يحب أن يسمع القرآن من غيره ويدعو إلى تلاوته بصوت جميل حسن، قال: «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ» وقال: «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»، كما قال: «لكل شيء حلية وحلية القرآن الصوت الحسن» أخرجه البخاري، وفي حديث أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه: «لو علمت أنك تسمع لقراءتي لحبرتها لك تحبيرا»، والتحبير تحسين الصوت وتحزينه. كما يدخل في هذا الباب حثه ﷺ على التجمل بالأخلاق الحسنة، فعن عائشة، رضي الله عنها، عن الرسول ﷺ قال: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ الْخُلُقِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ»، أخرجه أبو داود وابن ماجه، صحيح الجامع الصغير وزيادته: الحديث رقم ١٩٣٢، تنظر هاته الأحاديث وغيرها في مسند الإمام أحمد، ٣٠٤/٤، الحديث رقم ١٨٧٢٦، وما بعده؛ والمستدرك على الصحيحين، ٧٦٢/١ الحديث رقم ٢١٠٠، وما بعده.

التجمل إظهارا لنعمه عليهم، وحبا في الله الذي يحب عباده المتجملين. في هذا السياق أخرج أبو داود عن أبي الأحوص عن أبيه قال: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي ثَوْبٍ دُونٍ، فَقَالَ: **أَلَكَ مَالٌ؟** قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: **مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟** قَالَ: قَدْ آتَانِي اللَّهُ مِنَ الإِبِلِ وَالْغَنَمِ وَالْخَيْلِ وَالرَّقِيقِ، قَالَ: **فَإِذَا آتَاكَ اللَّهُ مَالاً، فَلْيُرَ أَثَرُ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ وَكَرَامَتِهِ**»[1].

وأخرج الترمذي وحسنه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يحب أن يرى نعمته على عبده**»[2]، لذلك كان، عليه السلام، حريصا على إظهار ميزة الجمال الظاهر والباطن في وصفه للأنبياء، عليهم السلام، فيبيّن الجمال الباهر لإبراهيم الخليل عليه السلام، وأنه «أحسن الرجال» كما وردَ في حديث المعراج: «**فإذا أنا بإبراهيم خليل الرحمن مسندا ظهره إلى البيت المعمور كأحسن الرجال**»[3]، ويذكر ﷺ جمال موسى، عليه السلام، ومحاسن حياته

(١) أخرجه أبو داود في سننه، ٥١/٤، ح٤٠٦٣؛ والنسائي في سننه (المجتبى)، ١٨١/٨، ح٥٢٢٤؛ والطبراني في المعجم الكبير، ٢٨٢/١٩، الحديث رقم ٦٢١؛ والإمام أحمد في مسنده، ٤٧٣/٣، الحديث رقم ١٥٩٣٢.

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده، ٣٢٠/٢، الحديث رقم ١٠٥٥؛ والطبراني في «مسند الشاميين»، ٢٩٩/٣، الحديث رقم ٢٣٢٢؛ والقضاعي في «مسند الشهاب»، ١٤٣/٢، الحديث رقم ١٠٦٧؛ والهيثمي في مسند الحارث، زوائد الهيثمي، ٦٠٧/٢، الحديث رقم ٥٧١.

(٣) أورده ابن حجر بهاته الصيغة في فتح الباري ٢١٢/٧، أما غيره فقد أخرجه بالصيغة التالية: «حدثنا شيبان حدثنا حماد عن ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لما عرج بي إلى السماء السابعة فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ، عليه السلام، مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لا يَعُودُونَ إِلَيْهِ ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى السِّدْرَةِ الْمُنْتَهَى»، مسلم في صحيحه، ١٤٧/١، الحديث رقم: ١٦٢؛ وأبو يعلى في مسنده، ١٦٥/٦، الحديث رقم: ٣٤٤٧.

وعفافه؛ فقد روى البخاري ومسلم، رحمهما الله، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلاً حَيِيًّا سِتِّيرًا لا يُـرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ**»(١)؛ وقد ثبت في الحديث الصحيح من حديث الإسراء: أن رسول الله ﷺ مر بيوسف، عليه السلام، في السماء الثالثة، قال: «**ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ﷺ قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ ﷺ إِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ**(٢) **فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ**»(٣)؛ وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي

---

(١) صحيح البخاري، ٣/١٢٤٩، الحديث رقم ٣٢٢٣؛ ومسند أحمد، ٢/٥١٤، الحديث رقم ١٠٦٨٩؛ والسنن الكبرى، ٦/٤٣٧، الحديث رقم ١١٤٢٤.

(٢) توقف الشراح كثيرا عند هذا الحديث، ورلحوا يبحثون في جمال رسول الله ﷺ وجمال سيدنا يوسف، عليه السلام، ومن أنفس ماقيل فيه، ما أورده الشوكاني من كلام نسبه للزركشي، وفيه: «المراد أنه أعطي شطر الحسن الذي أوتيه نبينا؛ فإنه بلغ النهاية ويوسف بلغ شطرها». فيض القدير للشوكاني، ٢/٤٤؛ أما ابنُ حَجَـر فيقـول: «وَهَذَا ظَاهِره أَنَّ يُوسُف، عَلَيْهِ السَّلام، كَانَ أَحْسَن مِنْ جَمِيع النَّاس، فَعَلَى هَذَا فَيُحْمَل حَدِيث الْمِعْرَاج عَلَى أَنَّ الْمُرَاد غَيْر النَّبِيّ ﷺ، وَيُؤَيِّدهُ قَول مَنْ قَالَ: إِنَّ الْمُتَكَلِّم لا يَدْخُل فِي عُمُوم خِطَابه، وَأَمَّا حَدِيث الْبَاب فَقَدْ حَمَلَهُ اِبْن الْمُنِير عَلَى أَنَّ الْمُرَاد أَنَّ يُوسُف أُعْطِيَ شَطْر الْحُسْن الَّذِي أُوتِيَهُ نَبِيّنَا ﷺ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ». ابن حجر، فتح الباري، ١١/٢١٦.

(٣) صحيح مسلم، ١/١٤٥، الحديث رقم ١٦٢؛ ومسند أحمد، ٣/١٤٨، الحديث رقم ١٢٥٢٧؛ ومصنف ابن أبي شيبة، ٧/٣٣٣، الحديث رقم ٣٦٥٧٠.

وأبي هريرة عند ابن عائذ والطبراني: «فَإِذَا أَنَا بِرَجُلٍ أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ، قَدْ فَضُلَ عَلَى النَّاسِ بِالْحُسْنِ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ»[1].

لقد فطر الإنسان على استلهام النماذج التطبيقية، واعتمادها قدوة للتأسي والاتباع، ونعتقد أن الوعي و الذوق الجماليين، لا يخرجان عن هذا الإطار، لذلك حرص الرسول ﷺ على إعطاء النموذج لصحابته، يشهد لذلك ما أخرجه ابن سعد عن جندب بن مكيث قال «كان رسول الله ﷺ إذا قدم الوفد لبس أحسن ثيابه، وأمر عليه أصحابه بذلك»[2]، وما أخرجه الإمام أحمد عن أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّكُمْ قَادِمُونَ عَلَى إِخْوَانِكُمْ، فَأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ وَلِبَاسَكُمْ حَتَّى تَكُونُوا فِي النَّاسِ كَأَنَّكُمْ شَامَةٌ[3] فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلا التَّفَحُّشَ»[4].

وإذا كان المؤمنون شامة وسط الناس في الدنيا، فإنهم سيكونون كذلك في الآخرة، لذلك يستفز الرسول ﷺ حسهم الجمالي قائلا: «أَنْتُمُ الْغُرُّ

---

(١) صحيح مسلم، ٣٨٥/١. الحديث رقم ٢٣٤، و«عمدة القاري شرح صحيح البخاري»، ٨٣/١٣؛ و«تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري»، ١٦٥/٢.

(٢) كنز العمال، الحديث رقم ١٨٢٨٧.

(٣) قال ابن الأثير في شرحه لهذا الحديث: «حتى تكونوا كأنكم شامَةٌ في الناس»، ثم أضاف: الشامَةُ: الخال في الجسد معروفة، أراد: كونوا في أحْسَن زيّ وهيئة حتى تَظْهَرُوا للناس، وينظروا إليكم كما تَظْهَرُ الشامةُ ويُنْظَرُ إليها دون باقي الجسد. النهاية في غريب الأثر، ١٠٧٠/٢.

(٤) أخرجه الإمام أحمد.

الْمُحَجَّلُونَ[1] يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ إِسْبَاغِ الْوُضُوءِ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ فَلْيُطِلْ غُرَّتَهُ وَتَحْجِيلَهُ»[2]، فهذه هي: «سِيَمُ الجمال في وجوه المحبين وأطـــرافهم، يوم يرِدُون على المصطـــفى ﷺ، وهي سِيَمٌ «لَيْسَتْ لأَحَدٍ مِنَ الأُمَمِ»[3]، بها يعرفون في كثرة الخلائق يوم القيامة، كالدر المتناثر في دجنة الفضاء. هذه ومضة الإبراق النبوي تبشر برشح الأنوار على أطراف المتوضئين الساجدين، رشحا لا يذبل وميضه أبدا!»[4]، وكيف يذبل وهـــو وســـيلة التواصـــل والتعارف يوم القيامة، لذلك قال ﷺ: «ما من أمتي من أحد إلا وأنا أعرفه يوم القيامة! قالوا: وكيف تعرفهم يا رسول الله في كثرة الخلائـــق؟ قـــال: «أرأيت لو دخلتَ صُبْرَةً (محجرا) فيها خيلٌ دُهْمٌ بُهْمٌ، وفيها فرَسٌ أغَـــرُّ مُحَجَّلٌ، أما كنتَ تعرفه منها؟» قالوا: بلى. قال: «فإن أمتي يومئذ غُرٌّ من السجود، مُحَجَّلون من الوضوء!» [5].

---

(١) الغرة بياض في ناصية الحصان، والتحجيل بياض في يديه.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة. الحديث رقم ٣٤ ٢٤٦ عن أبي هريرة، وكنز العمال، الحديث رقم ٢٦١٣٥.

(٣) والحديث بتمامه: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ حَوْضِي أَبْعَدُ مِنْ أَيْلَـــةَ مِنْ عَدَنٍ، لَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ الثَّلْجِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ بِاللَّبَنِ، وَلَآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَـــدَدِ النُّجُومِ، وَإِنِّي لَأَصُدُّ النَّاسَ عَنْهُ كَمَا يَصُدُّ الرَّجُلُ إِبِلَ النَّاسِ عَنْ حَوْضِهِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَعْرِفُنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، لَكُمْ سِيمَا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ، تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ» . صحيح مسلم، ٢١٧/١، الحديث رقم٢٤٧.

(٤) فريد الأنصاري، مفهوم الجمالية في الإسلام من الترتيل إلى التـــشكيل، حـــراء: ٢، (يناير - مارس)٢٠٠٦م.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ٩٩/٥، حديث رقم ٢٠٩٨١؛ والطبراني في معجمـــه الأوسط، ٦/١، حديث رقم٤.

لذلك كان طبيعيا أمام هذا التشويق، أن يسارع الصحابة لتنفيذ وصية رسول الله ﷺ بالتجمل وأخذ الزينة، خاصة في المحافل والمنتديات وعند مقابلة الغير، فقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: «وجهني على بن أبي طالب إلى أبي الكواء وأصحابه وعليَّ قميص رقيب وحلة ، فقالوا لي : أنت ابن عباس وتلبس مثل هذه الثياب؟! فقلت: أول ما أخاصمكم به قال الله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ (الأعراف:٣٢) و﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف:٣١)، وكان رسول الله ﷺ يلبس في العيدين بردي حبرة»، كما أخرج أبو داود عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: لَمَّا خَرَجَتِ الْحَرُورِيَّةُ أَتَيْتُ عَلِيًّا، فَقَالَ: ائْتِ هَؤُلاءِ الْقَوْمَ، فَلَبِسْتُ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِنْ حُلَلِ الْيَمَنِ، فَأَتَيْتُهُمْ، فَقَالُوا: مَرْحَبًا بِكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، مَا هَذِهِ الْحُلَّةُ؟! قَالَ: مَا تَعِيبُونَ عَلَيَّ؟ لَقَدْ رَأَيْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِنَ الْحُلَلِ»[1].

ومن عجيب الوصايا التي يجمل إيرادها في هذا الباب، ما روي عن قتادة قال: أخبرني محمد بن ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري، رحمه الله،

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، ٤/٤٥، الحديث رقم ٤٠٣٧، والمستدرك على الصحيحين، ٤/٢٠٢، الحديث رقم ٧٣٦٨. وفي رواية أن ابن عباس، رضي الله عنهما، أتم كلامه بقراءة قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾.

قال: «كان ثابت بن قيس رجلاً جهير الصوت، يحب الجمال والشرف، وكان قومه قد عرفوه بذلك. فلما أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، انصرف ثابت بن قيس بن شماس، رحمه الله، من عند النبي ﷺ وهو ينتحب؛ فدخل بيته وأغلق عليه وطفق يبكي، ففقده رسول الله ﷺ فسأل عنه بشير بن سعد، رحمه الله، فأخبره خبره. فأرسل إليه النبي ﷺ فسأله عن أمره، فقال: أنزل الله تعالى عليك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ وأنا أحب الجمال، وأحب أن أسود قومي. فقال رسول الله ﷺ: إنك لست منهم. إنك تعيش بخير، وتموت بخير وتدخل الجنة. فلما قال ذلك رسول الله ﷺ خرج من بيته، وسرّ بما قاله رسول الله ﷺ»[1].

نقف لنلتقط الإشارات الجمالية المضيئة من الأحاديث السابقة، ومنها التنصيص على ضرورة انتقاء الثوب الحسن وإصلاحه، وتخير الراحلة الجيدة وانتخابها، ومنها محبة الجمال والرغبة في السيادة على الناس، وحرص المرء على التميز وسْط أقرانه بأن يكون أغر محجلا، يشار إليه بالفرادة كأنه شامة بينهم:

لا تَحْسَبوا شامَةً في خَدِّه طُبعتْ   على صحيفَةِ خدٍّ راقَ منظرُهُ
وإنَّما خدُّهُ الصَّافي تخالُ بـه   سَوادَ عينيكَ خالاً حينَ تنظرُهُ[2]

---

(١) ابن منقذ، لباب الآداب، ص ٢٥.

(٢) هذان البيتان أوردهما عبد الرحيم العباسي في «معاهد التنصيص على شواهد التلخيص»، ٣/٢٥٤؛ ونسبهما لمظفر الأعمى، وقد اجتهدت وسعي في البحث عن مصدر أوثق بهاته النسبة أو أترجم به للشاعر، لكني لم أظفر بشيء من ذلك.

لكن أجمل الإشارات التي يخرج بها الباحث من الأحاديث السابقة المؤسسة للجمال الإسلامي، والتي لابد من التنبيه إليها هنا، هي أولا حرص الصحابة، رضوان الله عليهم، على تأصيل سلوكاتهم الجمالية، بإرجاعها مرة إلى أصلها القرآني، كما فعل ابن عباس، رضي الله عنهما، عندما خاصم المعترضين عليه بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ (الأعراف:٣٢) وحاجهم بقوله سبحانه: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف:٣١)، أو كما فعل، رضي الله عنه، مرة أخرى عندما سوغ تصرفاته تلك بالإحالة على سنة رسول الله ﷺ الفعلية، قائلا: «كان رسول الله ﷺ يلبس في العيدين بردي حبرة» ومستنكرا على خصومه بقوله: «أتعيبون علي؟ لَقَدْ رَأَيْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِنَ الْحُلَلِ»[1].

ثاني هذه الإشارات، هي غرابة الربط بين خشونة المركب والملبس وبين الفحش والتفحش، غرابة تتقوى أكثر عندما نطلع على الروايات الأخرى لحديث: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»، وما فيها من زيادات، كما في الرواية التي أخرجها البيهقي عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله جميل يحبّ الجمال، ويحبُّ أن يرى أثر نعمته

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، ٤/٤٥، الحديث رقم ٤٠٣٧؛ والمستدرك على الصحيحين، ٤/٢٠٢، الحديث رقم ٧٣٦٨.

على عبده»[1] وأضاف: «ويبغض البؤس والتباؤس»[2]، وفي رواية أخرى للطبراني وابن عساكر، رضي الله عنهما، بزيادة: «ويحب معالي الأخلاق ويكره سفْسافَها»[3].

إن التأمل الهادئ في الإشارتين الجماليتين الأخيرتين، يهدينا إلى الإقرار بأن المواقف والسلوكات الجمالية المعبر عنها أعلاه، هي أعمال عبادية تحمل رؤية الإسلام المعرفية للجمال، أعمال يتماهى فيها الظاهر بالباطن، والمادي بالمعنوي، وتجلياتها ذات بعد جمالي واضح، في الشكل والمضمون، في المبنى والمعنى، في الرسم والوجدان.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) جزء من حديث: «إذا آتاك الله مالاً فلير عليك، فإن الله يحب أن يرى أثره على عبده حسنا، ولا يحب البؤس ولا التباؤس». كنز العمال، ح١٧١٧٢.

(٣) جزء من حديث، يقول فيه الرسول ﷺ: «إن الله كريم يحب الكرم ومعالي الأمور، ويبغض -أو قال يكره- سفسافها»، المستدرك على الصحيحين، ١١٢/١ الحديث رقم ١٥٣.

المبحث الثاني
علماء الإسلام والجمال

في المبحث السابق، رأينا كيف عملت التربية الجمالية للنبي ﷺ، على صياغة الذوق الجمالي الرفيع عند الصحابة الكرام، وتتبّعنا الحضور القوي للحس الجمالي في العصر النبوي. في هذا المبحث نقف عند مجموعة من العلماء في مرحلة ما بعد النبوة لنرى الكيفيات التي تعاملوا بها مع موضوع الجمال، حضورا وغيابا، قوة وضعفا، فهما وتطبيقا.

وأول ملاحظة نظفر بها في هذا الصدد، هي أن التابعين، رضي الله عنهم، حافظوا في ذوقهم الوجداني على التوهج نفسه الذي رأيناه عند الصحابة الكرام، بشكل نلمس فيه امتدادا لسلوكات جمالية تتكرر، في سياق إيماني يجعل الجمال قرينا ورديفا للعبادة، فقد كان الحسن البصري (ت١١٠ هـ/٧٢٨م)، رحمه الله، مثلا، إذا أراد الذهاب إلى المسجد تزين

وتطيب ورجّل شعره[1]، فلما سُئل في ذلك قال: أتجمّل لربي وتلا الآية: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ (الأعراف:٣١)، وكان أبو حنيفة (ت١٥٠هـ/٧٦٧م)، رحمه الله، إذا قام لصلاة الليل، اتخذ لها لباسا خاصا، وهو قميص وعمامة ورداء وسراويل، بقيمة ألف وخمسمائة درهم، يلبسه كل ليلة، ويقول: «التزين لله تعالى أولى من التزين للناس»[2].

بعد أبي حنيفة بثلاثة قرون، سيعرف علم الجمال الإسلامي، تطورا نوعيا مع الإسهامات العميقة لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي، رحمه الله (ت٥٠٥هـ)، الذي استعمل مفهوم الجمال ووظفه بشكل دقيق، في شرح أسرار المحبة الواجبة بين العبد وربه، وهي محبة مبنية على جبلية الانجذاب البشري للجمال وفطريته: «وهو حب كل جميل لذات الجمال لا لحظ ينال من وراء إدراك الجمال فذلك مجبول في الطباع»[3].

تأسيسا على ذلك، يرى الغزالي، رحمه الله، أن ثنائية الحسن والقبح تنطبق على كل المدركات التي تتفاوت في ما بينها بحسب توفرها على

---

(١) قال الغزالي، رحمه الله: كان الحسن البصري أشبه الناس كلاما بكلام الأنبياء، وأقربهم هديا من الصحابة، وكان غاية في الفصاحة، تتصبب الحكمة من فيه. إحياء علوم الدين، ٤/٣٣٠.

(٢) تفسير حقي، ٤/١٣٣.

(٣) إحياء علوم الدين، ٤/٣٠٣.

شروط الجمال من عدمه، وعليه فجمال كل شيء وحسنه: «في أن يحضر كماله اللائق به الممـــكن له، فإذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة، فهو في غاية الجمال، وإن كان الحـــاضر بعضها، فله من الحسن والجمال بقـــدر ما حضر؛ فالفرس الحَسن هو الذي جمع كل ما يليق بالفرس، مـــن هيئـــة وشكل ولون وحسن عدو وتيسر كر وفر عليه، والخط الحسن كل ما جمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف وتوازيها واســـتقامة ترتيبـــها وحـــسن انتظامها، ولكل شيء كمال يليق به، وقد يليق بغير ضد، فحسن كل شيء في كماله الذي يليق به، فلا يحسن الإنسان بما يحسن به الفرس، ولا يحـــسن الخط بما يحسن به الصوت، ولا تحسن الأواني بما تحسن به الثياب، وكذلك سائر الأشياء»[1].

لذلك فإن الجمال الكامل هو جمال الله تعالى، فـــ: «لا خير ولا جمال ولا محبوب في العالـــم إلا وهو حسنة من حسنات الله وأثر من آثار كرمه، وغرفة من بحر جوده. سواء أدرك هذا الجمال بالحواس أم بالعقل. وجمال الله سبحانه وتعالى أكمل الجمال»[2]، لذلك فإنه لا يدرك إلا بالقلب: «واعلم أن كل جمال محبوب عند مدرك ذلك الجمال والله تعالى جميل يحب الجمال ولكن الجمال إن كان بتناسب الخلقة وصفاء اللون أدرك بحاسة البصر، وإن

(١) إحياء علوم الدين، ٢٩٩/٤.

(٢) إحياء علوم الدين، ٢٨٠/٢ بتصرف يسير.

كان الجمال بالجلال والعظمة وعلو الرتبة وحسن الصفات والأخلاق وإرادة الخيرات لكافة الخلق وإفاضتها عليهم على الدوام إلى غير ذلك من الصفات الباطنة أدرك بحاسة القلب»[1].

في السياق ذاته، سيأتي ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ/١٣٥٠م) بعد الغزالي بقرنين، لينسج على المنوال ذاته[2]، ويبين في كتابه الممتع أن: «من أعز أنواع المعرفة معرفة الرب سبحانه بالجمال»[3]، ويعقد لبيان ذلك فصلا

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين، ٤/٣٥١.

(٢) لاحظت أن ابن القيم، رحمه الله، يكرر ما قاله الغزالي في مباحث كثيرة من كلامه عن الجمال، ورأيهما يتطابق أحيانا حتى في العبارة والشرح والاستدلال، مع اختلاف في التبويب والعرض، قوة وضعفا، اختصارا وتحليلا، تبسيطا وعمقا، مرات لصالح الغزالي، وأخرى لابن القيم، رحمهما الله، فابن القيم مثلا، ينطلق من حديث: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»، ليبين أن الجمال المطلوب هو جمال الظاهر والباطن، وهو الأمر نفسه الذي مر معنا أعلاه مع الغزالي، يقول ابن قيم: «فيحب أن يرى على عبده الجمال الظاهر بالنعمة والجمال الباطن بالشكر عليها. ولمحبته سبحانه للجمال أنزل على عباده لباسا وزينة تجمل ظواهرهم، وتقوى تجمل بواطنهم، فقال: ﴿يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾. وقال في أهل الجنة: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾، فجمل وجوههم بالنضرة وبواطنهم بالسرور وأبدانهم بالحرير، وهو سبحانه كما يحب الجمال في الأقوال والأفعال واللباس والهيأة، يبغض القبيح من الأقوال والأفعال والثياب والهيأة، فيبغض القبيح وأهله ويحب الجمال وأهله». ابن قيم الجوزية، الفوائد، ص١٨٤.

(٣) ابن قيم الجوزية، الفوائد، ص١٨١.

خاصا من كتابه «الفوائد»، وفيه يبين أن معرفة الله بالجمال: «هي معرفة خواص الخلق، وكلهم عرفه بصفة من صفاته، وأتمهم معرفة من عرفه بكماله وجلاله وجماله، سبحانه ليس كمثله شيء في سائر صفاته، ولو فرضت الخلق كلهم على أجملهم صورة وكلهم على تلك الصورة، ونسبت جمالهم الظاهر والباطن إلى جمال الرب سبحانه لكان أقل من نسبة سراج ضعيف إلى قرص الشمس، ويكفي في جماله أنه لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرق ما انتهى إليه بصره من خلقه، ويكفي في جماله أن كل جمال ظاهر وباطن في الدنيا والآخرة فمن آثار صنعته، فما الظن بمن صدر عنه هذا الجمال، ويكفي في جماله أنه له العزة جميعا، والقوة جميعا، والجود كله، والإحسان كله، والعلم كله، والفضل كله، ولنور وجهه أشرقت الظلمات، كما قال النبي ﷺ في دعاء الطائف: «**أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلُح عليه أمر الدنيا والآخرة**»، وقال عبد الله بن مسعود: «ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السموات والأرض من نور وجهه، فهو سبحانه نور السموات والأرض، ويوم القيامة إذا جاء لفصل القضاء تشرق الأرض بنوره، ومن أسمائه الحسنى الجميل، وفي الصحيح عنه إن الله جميل يحب الجمال»[1].

ثم يستطرد في بيان مراتب جمال الله تعالى بقوله: «وجماله سبحانه على أربع مراتب: جمال الذات، وجمال الصفات، وجمال الأفعال، وجمال الأسماء،

(١) ابن قيم الجوزية، الفوائد، ص١٨١-١٨٢.

فأسماؤه كلها حسنى وصفاته كلها صفات كمال، وأفعاله كلها حكمة ومصلحة وعدل ورحمة، وأما جمال الذات وما هو عليه فأمر لا يدركه سواه ولا يعلمه غيره، وليس عند المخلوقين منه إلا تعريفات تعرف بها، إلا من أكرمه من عباده، فإن ذلك الجمال مصون عن الأغيار محجوب بستر الرداء والإزار، كما قال رسوله فيما يحكى عنه: «**الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي**»[1]، ولما كانت الكبرياء أعظم وأوسع كانت أحق باسم الرداء، فإنه سبحانه الكبير المتعال، فهو سبحانه العلي العظيم.

قال ابن عباس: «حجب الذات بالصفات، وحجب الصفات بالأفعال، فما ظنك بجمال حجب بأوصاف الكمال وستر بنعوت العظمة والجلال، ومن هذا المعنى يفهم بعض معاني جمال ذاته، فإن العبد يترقى من معرفة الأفعال، إلى معرفة الصفات، ومن معرفة الصفات إلى معرفة الذات، فإذا شاهد شيئا من جمال الأفعال، استدل به على جمال الصفات، ثم استدل بجمال الصفات على جمال الذات»[2].

بقيت الإشارة، إلى أن ابن القيم، رحمه الله، تعامل بموضوعية أكثر مع موضوع الجمال، وكانت نظرته أكثر توازنا من الغزالي، رحمه الله، ودعا

---

(1) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، الحديث رقم ٢٦٢٠؛ وسنن أبي داود، كتاب اللباس، الحديث رقم ٤٠٩٠؛ وسنن ابن ماجه، كتاب الزهد، الحديث رقم ٤١٧٤؛ ومسند أحمد بن حنبل، ٢/٤٢٧.

(2) ابن قيم الجوزية، الفوائد، ص ١٨١-١٨٢.

إلى التعامل مع الظاهرة الجمالية دون إفراط أو تفريط، لذلك نجده يـــميز بين طائفتين كل منهما على الطرف النقيـــض من الأخرى، قالـــت الأولى: «ما خلقه فلا نبغض منه شيئا، ومن رأى الكائنات منه رآها كلها جميلـــة، وأنشد منشدهم:

وإذا رأيت الكائنات بعينهم   فجميع ما يحوي الوجود مليح

واحتجـــوا بقولـــه تعـــالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ (السجدة:٧)، وقوله: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ (النمـــل:٨٨)، وقوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ﴾ (الملك:٣)، والعـــارف عندهم هو الذي يصرح بإطلاق الجمال، ولا يرى في الوجود قبيحا، وهؤلاء قد عدمت الغيرة لله من قلوبهم والبغض في الله والمعاداة فيه وإنكار المنكـــر والجهاد في سبيله وإقامة حدوده، ويرى جمال الصور من الذكور والإناث من الجمال الذي يحبه الله فيتعبدون بفسقهم، وربما غلا بعضهم حتى يـــزعم أن معبـــوده يظهر في تلك الصورة ويحل فيها وإن كان اتحاديا قال هي مظهر من مظاهر الحق ويسميها المظاهر الجمالية»[١].

أما الطائفة الثانية فقد قالت: «لقد ذم الله ســبحانه جمـــال الـــصور وتـــمام القامة والخِلقة، فقال عـــن المنـــافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ﴾ (المنـــافقون:٤)، وقـــال: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ

---

(١) الفوائد، ابن قيم الجوزية، ص ١٨٥.

أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا﴾ (مريم:٧٤)، أي أموالا ومناظر، قال الحسن: «هو الصور»، وفي صحيح مسلم عنه: «**إِنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**»، وقالوا: قد حرم علينا لباس الحرير والذهب وآنية الذهب والفضة وذلك من أعظم جمال الدنيا، وقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ (طه:١٣١)، وفي الحديث: «**الْبَذَاذَةُ**[1] **مِنَ الإِيمَانِ**»[2] وقد ذم الله المسرفين؛ والسَّرَفُ كما يكون في الطعام والشراب يكون في اللباس»[3].

---

(١) «البذاذة رثاثة الهيئة، يقال: بَذُّ الهيئة وباذُّ الهيئة: أي رَثُّ اللِّبْسة. أراد التواضع في اللباس وترك التبجُّح به». النهاية في غريب الأثر، ٢٧٦/١. يقول المطرزي تعليقا على الحديث: «البذاذةُ من الإيمان هو التقشُّفُ ورثاثة الهيئة، وقد بَذِذْتَ بعدي بَذاذةً وبذاذاً، أي رثَّتْ هيئتُك. والمراد التواضع في اللباس ولبسُ مالا يؤدي منه إلى الخُيَلاء والكِبْر، ولأن لذلك موقعاً حسناً في الإيمان». المغرب في ترتيب المعرب، ٦٤/١.

(٢) ومنه أن رجلاً دخل المسجد والنبي ﷺ يخطب فأمره أن يصليّ ركعتين. ثم قال: «**إن هذا دخل المسجد في هَيْئَةٍ بَذَّةٍ فأمرتُه أن يصلّي ركعتين وأنا أريد أن يفطَن له رجل فيتصدقُ عليه**». قال أبو عمر النمري: اختلف في إسناد قوله ﷺ: «**البَذاذَةُ مِنَ الإيمَانِ**» اختلافا سقط معه الاحتجاج به ولا يصح من جهة الإسناد، «الفائق في غريب الحديث»، محمود بن عمر الزمخشري، ٩٠/١؛ و«التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» لابن عبد البر، ٢٥٥/٣؛ و«عون المعبود شرح سنن أبي داود»، لمحمد شمس الحق العظيم أبادي أبو الطيب، ١٤٦/١١؛ والنيسابوري في «المستدرك على الصحيحين»، ٥١/١، الحديث رقم ١٨؛ وابن ماجه في سننه، ١٣٧٩/٢، الحديث رقم ٤١١٨؛ والطبراني في المعجم الكبير، ٢٧٢/١، ح٧٨٩.

(٣) ابن قيم الجوزية، الفوائد، ص ١٨٥.

بعد هذا العرض المحايد، ينبري ابن قيم للحسم قائلا: «وفصل النزاع؛ أن يقال الجمال في الصورة واللباس والهيأة ثلاثة أنواع: منه ما يحمد، ومنه ما يذم، ومنه مالا يتعلق به مدح ولا ذم، فالمحمود منه ما كان لله وأعان على طاعة الله وتنفيذ أوامره والاستجابة له، كما كان النبي يتجمل للوفود، وهو نظير لباس آلة الحرب للقتال ولباس الحرير في الحرب والخيلاء فيه، فإن ذلك محمود إذا تضمن إعلاء كلمة الله ونصر دينه وغيظ عدوه. والمذموم منه ما كان للدنيا والرياسة والفخر والخيلاء والتوسل إلى الشهوات، وأن يكون هو غاية العبد وأقصى مطلبه، فإن كثيرا من النفوس ليس لها همة في سوى ذلك، وأما مالا يحمد ولا يذم هو ما خلا عن هذين القصدين وتجرد عن الوصفين»[1].

قاعدتان مهمتان، لخص بهما ابن القيم، رحمه الله، نظريته في الجمال، وبالضمن فهي تعكس رؤية أغلب علماء الإسلام للظاهرة الجمالية: القاعدة الأولى معرفية، تتلخص في أن معرفة الله تكون ميسورة وقليلة الأعباء على من سلك طريق الذوق الجمالي، بما هو عشق دائم للحثو على الركب في محاريب العبادة والتبتل، والقاعدة الثانية سلوكية، مضمونها أن عبادة الله يجب أن تكتسي لبوسا جماليا شفافا، في العقيدة والشريعة والسلوك، وعلى المؤمن ساعتها أن يكتشف تجليات الجمال العقدية والتشريعية والسلوكية،

---

(١) ابن قيم الجوزية، الفوائد، ص ١٨٦.

ليستمتع بتطبيقها، وهو يعبد الله و«يعرفه بالجمال الذي هو وصفه ويعبده[1] بالجمال الذي هو شرعه ودينه»[2].

وصفوة القول: إن علماء الإسلام على اختلاف العصور، تعاملوا مع الموضوعات الجمالية، تعاملا وظيفيا، واعتبروها جسرا للقرب من الله وعبادته، ومن أهم الأفكار التي تلخص هذا التوجه ما قاله «داوود الأنطاكي»[3] حول طبيعة الجمال، حيث رأى أن «الحسن هو ما استنطق اللسان بالتسبيح»[4]، وهي مقولة معرفية بليغة تعتبر: «تجسيدا رائعا لحياتية الجمال وتركيبته وارتباطه بالعبادة، فنحن نسبح الخالق ونحمده عندما نرى الشيء الجميل ونقول: «الله»، كعلامة على انبهارنا بالجمال، هذا الجمال الذي يدعو إلى العبادة هو الجمال الحق»[5]، وعليه يمكن القول إن: «كل

(١) والمقصود بعبادة الله بالجمال الذي يحبه من الأقوال والأعمال والأخلاق، أن الله يحب من عبده تجميل لسانه بالصدق، وقلبه بالإخلاص والمحبة والإنابة والتوكل، وجوارحه بالطاعة، وبدنه بإظهار نعمه عليه في لباسه وتطهيره له من الأنجاس والأحداث والأوساخ والشعور المكروهة والختان وتقليم الأظفار.

(٢) ابن قيم الجوزية، الفوائد، ص١٨٦.

(٣) هو داود بن عمر الأنطاكي (ت ١٠٠٨ هـ/١٦٠٠م) الأنطاكي: عالم بالطب والأدب، كان قوي البديهة يسأل عن الشيء من الفنون، فيملي على السائل الكراسة والكراستين، قال المحبي: «وقد شاهدت رجلا سأله عن حقيقة النفس الإنسانية فأملى عليه رسالة عظيمة». الزركلي، الأعلام، ٢/٣٣٣.

(٤) أسامة القفاش، مفاهيم الجمال: رؤية إسلامية (المعهد العالمي للفكر الإسلامي) ص ٢٠.

(٥) أسامة القفاش، مفاهيم الجمال: رؤية إسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص١٥، بتصرف يسير.

صنعة مرئية أنطقتنا بالتسبيح هي فن جمالي: الحديقة الغناء المنسقة التي تدعونا للسير في أرجائها والتمتع بأريجها فن، الكرسي المصنوع من الخشب بحرفة الأرابيسك المتقنة حيث تتراكب الوحدات المتقنة الصنع في توليفة متكررة تحاكي التسبيح وتدفع للتسبيح فن، ومشكاة النحاس والخزف المتقنة الجميلة فن، واللوحة الجميلة فن، والعمارة والبيت فن، كل ما نراه حولنا فن، طالما دعانا للتأمل وأحسسنا بقيمته الحياتية ودعانا للتفكر في تركيبته، وكيف استخرج الصانع من المادة الغفل جوهرها، وبالتالي أبدع لنا جمالها في طريقنا نحو معرفة جلال الله سبحانه»[1].

---

(١) أسامة القفاش، مفاهيم الجمال: رؤية إسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص٢٣، بتصرف يسير.

الفصل الرابع

علم الجمال الإسلامي

مساهمة في التأصيل والتجديد

عادة ما تثار نقاشات حادة ترتبط بالإشكالات المتعلقة بالتعريفات والحدود في مختلف الفنون والمعارف، وتزداد هاته الحدة أكثر عند إضافة صفة «الإسلامي» إليها، لذلك يتساءل الكثيرون بنبرة استنكارية واضحة: لماذا نضيف صفة «الإسلامي» إلى الجمال؟ وما الفائدة من هاته الإضافة؟ أليس «الجمال» معطىً كونيا يشترك فيه بنو البشر؟ فلِم الحاجة إلى حصر العلم به في نطاق عقيدة أو توجه أو حضارة بعينها؟ ثم ألا يؤدي الاكتفاء بـ«علم جمالي» كوني واحد، إلى تذويب الإنتاجات الجمالية لدول الهامش، لفائدة الدول الأكثر قدرة على نشر إنتاجها الجمالي والتسويق له؟ ولماذا تقوم قائمة النقاد عند إضافة صفة «الإسلامي» إلى أي فن أو علم، ويسكتون عند الصفات الأخرى مثل «الليبرالية» أو «الماركسية» وغيرها؟ ثم

لماذا نعيب على المسلمين استغلالهم للفن والجمال، لخدمة قضايا ومبادئ دينية بعينها، ولا نعيب على غيرهم ذلك، عندما يوظفون الفنون لخدمة إيديولوجياتهم وأفكارهم ومبادئهم؟

قبل الشروع في الإجابة عن هاته الأسئلة، نستهدي بكلام نفيس للأستاذ راشد الغنوشي قال فيه: «وراء كل لحن، وكل آهة، وكل صورة شعرية أو زيتية أو نثرية، تكمن خلفية اعتقادية: نظرة للحياة وللهدف منها، وللإنسان ودوره، وللكون والقوى التي تتحكم فيه. ومهما يبذل الشعراء والفنانون من جهد لإقامة حد فاصل بين إنتاجهم ومعتقداتهم وأفكارهم؛ فإنهم -لا محالة - خائبون، وحتى من لم يعترف منهم بذلك زاعمًا أن إنتاجه صورة صادقة للطبيعة ووصف موضوعي لما شاهد فهو مخدوع، والناقد البصير لا تخفى عليه شخصية الفنان أو الكاتب متجسدة بكل ملامحها في آثارهما؛ إذ إن الإنتاج الأصيل هو صورة صادقة لشخصية صاحبه، ومُحال أن تنجح في إقامة حاجز بين شخصية الإنسان وبين أفكاره ومعتقداته واتجاهاته؛ لأن الشخصية في جزئها الفعال ليست أكثر من ذلك»[1].

نضع أيدينا مع الغنوشي، حفظه الله، على حقيقة مهمة، وهي استحالة الفصل بين الفن وبين الخلفية الاعتقادية والثقافية لصاحبه، فكل لحن وآهة ورسم وكلمة تعكس مرئيات شخصية من صدرت عنه، وتجلي ما خفي عنه، إنها بطاقة تعريف تكشف من بين السطور عن مواقف صاحبها

(١) راشد الغنوشي، من الفكر الإسلامي في تونس، ص٥٨-٥٩.

ومرجعيته الفكرية وخلفيته المعرفية، بل وانفعالاته وأحاسيسه ومشاعره أيضا. لذلك نقرر أن ادعاء الحَيْدةِ التامة في الأفكار والإبداع هو نوع من الدجل، وتجافٍ عن الحقيقة التي تشهد لها التجارب، وتعضدها الأدلة، وتنصرها شهادة الإنسان المبدع على نفسه.

يقال: إن السكوت في بعض المواطن كلام بليغ، وعدم الرد أحيانا يكون أبلغ من الرد، أي أنه حتى في المواقف التي يخيل للرائي أنها سَلبية، يكون التعبير عن المواقف والقيم فيها واضحا وقويا، ألم يعبر «سارتر» يوما عن موقفه من الحياة بالعبث، ألم يَقْلِبْ رفيقه في الوجودية «كيرجراد»، الكوجيتو الديكارتي المعروف إلى كوجيتو جديد، مضمونه: «أنا أفكر إذن أنا غير موجود»، ليبين أن لا براءة لأي موقف أو سلوك يصدر عن الإنسان، حتى لو بدا متطرفا وخارجا عن معهود الناس في الخطاب والتواصل.

يقول فيلسوف الوجودية «سارتر»، موضحا استحالة تحقق الحيدة حيال الموجودات نطقا وصمتا: «مادام الكاتب قد أخذ على نفسه أن يعمل عن طريق اللغة؛ فليس له بعد ذلك أن يتقاصر همته عن البيان، إذا اخترت لنفسك عالم الألفاظ ودلالتها فلا سبيل لك بعد ذلك إلى الخروج، دع الكلمات تنتظم حرة في سلك الجمل؛ فستحوي كل كلمة اللغة كلها، بل سيتحدد الصمت نفسه بالإضافة للكلمات، كما تأخذ السكتة في الموسيقى معناها من أصناف ما يجاورها من ألحان؛ فهذا الصمت لحظة من لحظات الكلام.

فليس السكوت بكمًا، ولكنه رفض للتكلم، إذن فهو نوع من الكلام. فإذا اختـــار كاتب أن يُمســـك عن الكلام عن مظهر من مظاهر العالـــم، أو بالأحرى إذا اختار أن يـــمر به في صمت؛ فلنا الحق أن نضع له السؤال: لماذا فضلت الكلام في هذا الأمر دون ذاك؟ وبما أنك تتكلم قاصدًا التغيير؛ فلماذا تريد تغيير هذا دون ذاك»[1].

ويقول في موضع آخر: «يدرك الكاتب الملتزم أن الكلام عمل، ويعلم أن الكشف نوع من التغيير، وأنه لا يستطيع الكشف عن شـــيء إلا حـــين يقصد إلى تغييره، وقد تخلى عن ذلك الحلم المتعذر التحقيق مَن رسم صورة للمجتمع أو للحالة الإنســـانية دون تحيز فيها؛ فالإنسان هو المخلوق الذي لا يحتفظ حيال موجود ما بالحيدة، والإنســـان كذلك هو المخـــلوق الذي لا يمـــكن أن يرى حـــالة دون أن يغيرها؛ لأن نظرته تسجـــل، أو تهـــدم، أو تصور، أو تفعل فعـــل الأبدية في تمثيل الأشياء، إما بالحب، أو الـــبغض، أو الغضب، أو الخـــوف، أو الســـرور، أو الحنق، أو الإعجاب، أو الأمل، أو اليأس، فبهذه المشاعر يتكشف الإنسان والعالـــم عن حقيقتهما»[2].

لا حَيْدَةَ إذن في المواقف والتصورات، ولا حيدة في الكتابة والإبـــداع، ولا حيدة في العلم والفن، لذلك يجب أن نقبل - ويقبل الجميع - بتـــسمية «علم الجمال الإسلامي» دون مركب نقص، ودون اتهام لأصـــحاب هـــذا

---

(١) جان بول سارتر، ما الأدب؟، ص٤٠-٤١.

(٢) المرجع نفسه، ص٣٨.

الاتجاه بفساد قصودهم ونياتهم، والتمترس خلف الأحكام الجاهزة والتسلح بالنعوت القادحة لرمي دعاة هذا العلم بمنجانيق الأدلجة وتسييس الفن والجمال. ثم إن المسلمين ليسوا بدعا لوحدهم في ادعائهم بوجود علم إسلامي للفن والجمال خاص بهم، فالتاريخ يحدثنا عن الفن الاشتراكي وكيف وظف الفنون الجميلة في خدمة مذهبه، والتبشير به عبر جماليات المسرح والسينما(١)،كما حدثنا عن الفن والجمال من وجهة نظر وجودية خالصة(٢)، وأخرى مسيحية عبر جماليات أدب «فيكتور هوجو» و«دوستويفسكي»(٣)، كما أنبأنا التاريخ عن رؤية جمالية بخلفية عبثية

---

(١) يقول «ماركس»: «لأتسين الناس بالمسرح» عام١٩٠٧م، ثم يأتي «لينين» من بعده فيقول: «لئن غابت عنا السينما إلى الآن فليعلم الماركسيون في العالم أن السينما بالنسبة لنا أهم الفنون»، ويأتي بعد ذلك «ليون تروتسكي» الثائر الماركسي ويقول عام ١٩٢٣م: «لئن تركنا السينما دون أن نعبئها تعبئة ماركسية هادفة إلى الآن فلا أقول نحن مقصّرون، بل أقول نحن متخلفون أغبياء»، إذن واضع الفلسفة الشيوعية ماركس، ومطبقها لينين، والمنظر والثائر الراديكالي في دلخل الفلسفة تروتسكي يعلمون جيداً قيمة الفن والجمال من حيث إنهما وسيلة؛ فهذا قال المسرح، والآخر قال السينما، والثالث وجد التطوير التطبيقي للسينما». هذا الكلام مقتبس من تدخل د.محمود خليل، ضمن مشاركته في الحلقة الأولى من ندوة العلمانية والفن، محور ماهية الفن. حرر أعمالها في تقرير شامل الأستاذ وائل عبد الغني، لفائدة مجلة البيان اللندنية، العدد ١٦٢، شهر مايو، سنة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

(٢) تعتبر كتابات «سارتر» الأدبية، وإبداعات «سيمون دي بوفوار» خير مثال لهذا الاتجاه.

(٣) نبه بعض الدارسين إلى وجود تأثير قوي لعقيدة الفداء المسيحية في روايات «دوستويفسكي»، خاصة رواية «الجريمة والعقاب»، و«الأبله»، و«الإخوة كرامازوف».

واضحة مع «كافكا» و«صمويل بيكيت». وهكذا نسجل أن: «وراء كل مذهب أدبيّ عرفه الغرب قديماً وحديثاً مذهب فلسفيٌّ يمدّه بالتصوّرات والأشكال والمعاني، ويرسم له مصادر الجمال وموازينه؛ فالمذهب الأدبيّ الكلاسيكي كان وراءه بعض المذاهب الفلسفية اليونانيّة والرومانيّة، فاعتمد هذا المذهب تقديس الأقدمين وسيادة العقل على العاطفة، والمذهب الرومانسي قام على أفكار «جان جاك روسو» و«شاتوبريان» وغيرهما، والمذهب الواقعي تأثّر بالفلسفة التجريبية وفلسفة «إيمانويل كانت» وغيرهما. ثمّ توالت المذاهب الأدبيّة ينقض بعضها بعضاً، كما توالت المذاهب الفلسفية معها؛ فجاء المذهب البرناسي[1] والمذهب الرمزي ومذاهب الحداثة الأخرى، ثمّ البنيوية والتفكيكية وغير ذلك.

فإذا حقَّ لهذه المذاهب الفلسفيّة أن تدفع مذاهب أدبية وتصوغ لها تصوّراتها، فإن الإسلام له الحقّ الأول في أن يدفع للبشرية أدباً نابعاً منه تصوّراً وفكراً ولغةً وجمالاً»[2].

تأسيسا على ذلك، يمكن القول: إن «علم الجمال الإسلامي» يستمد شرعيته من حق الأمة الإسلامية في أن يكون لها إسهام في بناء المعرفة الإنسانية، وأن يكون لها تميزها الحضاري الذي تسِمُ به مختلف العلوم والفنون والمعارف، دون أن ننسى قبل هذا وأثناءه وبعده أن: «المعيار

---

(١) ويعرف أيضا بـ«الجمالية».

(٢) عدنان علي رضا النحوي، الأدب بين الجمال والزخرف، ص٦.

الأساسي في اعتبار العمل الإبداعي فنًا هو في قدرته على استثارة وجـدان الآخرين، ومن ثَم فالفن يستقل بذاته في كونه فنًا؛ سواء ارتبط بـالأخلاق والدين أم لـم يرتبط بهما. وغاية ما نستطيعه حيال علاقته بهما، هـو أن نقبله أو نرفضه، دون أن يحق لنا أن نجرد هذا العمـل من صفتـه الفنيـة بحسب موقفنا الأخلاقي والديني أو الإيدلوجي منه»[1].

لكن بعد الاتفاق على سلامة إضافة صفة «الإسلامي» إلى علم الجمال والتسليم بها، يتساءل بعض الباحثين عن هذا العلم: أين هـو؟ مـن هـم رواده؟ما مصادره وما مظانه لـمن رغب في دراسته ومعرفته؟ ومـا هـي إنتاجاته التي يتميز بها عن غيره؟

أثرنا هذا السؤال سابقا ونعود إليه لنؤكد حقيقة يجمع عليها عند جميع العقلاء، وهي أنه لـم تجر العادة في تاريخ العلوم بالحديث عن علـم مـن العلوم إلا بعد اكتماله ونضجه، ثم ما فائدة التأريخ للعلوم وعودة فلاسـفته إلى التاريخ لدراسة جذور هاته العلوم وأنوية تشكلها ونشوئها؟

لذلك فنحن لا نتحدث عن علم جمال إسلامي قائم الذات، مـشهور الأعلام، معروف بمصادره ومراجعه البشرية، بقدر ما نتحدث عن إمكانيات هائلة متاحة أمام هذا العلم، تاريخا وحوافز وأطراً نظرية ومعرفية، تـؤهله للانطلاق في عوالـم الإبداع والابتكار، والأداء الراشد، الذي ينشد نـشر قيم الحق والخير والجمال، وإشاعتها بين العالـمين.

---

(١) محمد إبراهيم مبروك، إطار عام لنظرية الفن الإسلامي، محور: ملامح ظاهرة الفن الإسلامي، ص٢.

في هذا السياق، يأتي هذا البحث إسهاما من صاحبه في التأسيس لعلم جمال إسلامي، يستلهم مبادئه وأسسه من القرآن الكريم، من خلال البحث في الآليات الجمالية التي يمارس بها هذا الكتاب تأثيره البهي والقوي على النفوس والعقول، ونقترح تحقيقا لذلك المعالم الآتية، عساها تسهم في التأصيل لهذا العلم، وتؤثل مسيره، وتوجه أداءه، وتحفظه من الكبوات والزلات:

المعلم الأول: القرآن الكريم هو الأساس، الذي تستمد منه كليات علم الجمال الإسلامي وأصوله:

فالقرآن الكريم: «هو فضاؤنا الروحي الذي من المفروض أن نستمد منه المعنى والقيمة، وسيظل كذلك دوماً، ولو تمكنا من إقامة جمالياته، فإن هذا سيجدد رسالته إلينا نحن المسلمين في هذا العصر بالذات، ذلك أن أول أهداف جماليات على هذه الدرجة من الاستقلال والعمق الروحي أن يكون الحس القرآني - بمعناه الواسع الذي تتماهى فيه القيم المطلقة لتصبح قيمة واحدة تشع بما هو إلهي وإنساني في أن معاً- منهجاً للحياة وارتقاءً بها، بعيداً عن العقليات التحريمية التي أفقرت عالم المسلم لقرون، حتى صار مفهوم «المتعة» عنده يكاد يقتصر على الحسي المبتذل»[1].

---

(١) هلال محمد جهاد، جماليات القرآن: مشروع فلسفة جمال عربية.. إسلامية معاصرة، ص١٩-٢٠.

إن العودة للقرآن الكريم، تأصيلا لعلم الجمال وبحثا عن جذور مؤثلة للممارسة الجمالية الواعية، هو عودة للذات المسلمة التي تريد تجديد صلتها بمصدر الرسالة الخاتمة، والتفاعل معها بشكل إيجابي، عبر الرفع من مستوى تذوقها للجمال، وفهمها واكتشافها لتجلياته في عالم القرآن والأكوان، لذلك فالحديث عن جماليات القرآن الكريم، هو حديث عن الآليات التي بها يصير الحس القرآني منهجاً للحياة وارتقاءً بها، في مدارج الرقي والحسن والكمال، وبهذا نقطع الطريق – أو بعضه على الأقل – على القراءات الحداثية المعاصرة للقرآن الكريم، التي حالت بين المسلم وتذوق جماليات كتاب الله تعالى، إذ راحت تُعمل أدواتها الهرمنوطيقية، لتفكيك بنيات النص القرآني، وتوظف أدوات العلوم الإنسانية على النص المقدس[1]، فلم تخرج من قراءاتها تلك، إلا بخيبات الأمل، وما يشبه الشطح العلمي المغلف بمفاهيم الهندسة واللسانيات وتقنيات تحليل الخطاب[2].

إن القراءة الجمالية الصحيحة للقرآن الكريم، من شأنها أن تخفف من حدة هاته القراءات المتفلتة عن ضوابط القراءات العلمية للنص القرآني، على

---

(١) كشف الدكتور «طه عبد الرحمن» عن العيوب المنهجية للقراءات المعاصرة للقرآن الكريم، من خلال كتابه القيم: «روح الحداثة»، ولخصها حفظه الله في «الأنسنة» و«العقلنة» و«التاريخية»، أي أن هاته القراءات تعاملت مع النص القرآني باعتباره نصا بشريا، وتاريخيا، وقرأته وفق مقتضيات العقل البشري وقوانينه. ولا يخفى ما في هذا من التجني والتعسف.

(٢) توصلت إلى هذا الحكم، بعد دراسة موسعة قمت بها حول «القراءات الحداثية للقرآن الكريم، بين ثعلبية الطرح، وخبث المقصد»، وهي معدة وجاهزة للنشر.

الأقل بتحجيم مساحة القراء الذين يتابعون هاته القراءات، خضوعا للدعايات الإعلامية الواسعة لهاته القراءات، وأحيانا أخرى بدافع الفضول العلمي، أو انبهارا بشخصية صاحب القراءة وشهرته في عالم الثقافة والفكر.

لذلك نعتقد أن الكشف عن علم الجمال القرآني أضحت ضرورة ملحة لإبعاد الناس عن هذا اللغط والعبث الفكري الذي أذهب جذوة التأسي بجماليات القرآن من نفوس الناس وعقولهم، ونعتقد أن من أهم المفاتيح المساعدة على ذلك، ما دعا إليه الدكتور طه جابر العلواني من ضرورة اكتشاف «منهجية القرآن المعرفية»(1)، التي يقدمها لنا القرآن المجيد: «في شكل محددات وسن قوانين يمكن استنباطها من استقراء آيات الكتاب الكريم، تلاوة، وتدّبراً وترتيلاً، وتنزيلاً، وتفكراً، وتعقلاً، وتذكراً، ثم التعامل مع هذه المحددات تعاملاً يسمح لنا بأن نجعل منها محدّدات تصديق وهيمنة، وضبط لسائر خطواتنا المعرفيّة، ومنها: تصحيح مسار المنهج العلمي، وإخراج فلسفة العلوم الطبيعية والاجتماعية من مضايق النهايات التي تتوقف عندها الآن. وفي مقدمة هذه المحددات «الجمع بين القراءتين» و«الوحدة البنائية للقرآن»(2).

---

(1) تتدرج دعوة الدكتور العلواني هاته ضمن مشروع فكري متكامل، عمل على توضيح معالمه من خلال مجموعة من الكتابات، بلغت إلى حد كتابة هاته السطور خمسة كتب يصدرها ضمن «سلسلة دراسات قرآنية»، وهي على التوالي: «أزمة الإنسانية ودور القرآن الكريم في الخلاص منها» و«الجمع بين القراءتين.. قراءة الوحي وقراءة الكون»، و«الوحدة البنائية للقرآن المجيد»، و«لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب»، و«نحو موقف قرآني من النسخ».

(2) طه جابر العلواني، الجمع بين القراءتين (الوحي والكون)، سلسلة دراسات قرآنية، رقم2 (دار الشروق، ٢٠٠٥م).

لقد صارت الدعوة إلى «الجمع بين القراءتين» و«الوحدة البنائية للقرآن» لصيقة باسم الدكتور العلواني في المحافل الفكرية والثقافية، وهو يقصد بفكرة الجمع بين القراءتين: قراءة المسطور وقراءة المنظور (قراءة القرآن وقراءة الكون)، كما يرى أنه لا يمكن فهم القرآن الكريم ومعرفة مراميه دون الجمع بين هاتين القراءتين، فمن «تجاوز القراءة الأولى في الوحي النازل إلى النبيين، واستغرق استغراقا كليا في القراءة الثانية التي تمثل علم الكون أو معارف الطبيعة منقطعة عن الله، فقد العلاقة بالله وتجاهل الغيب وانطلق بفلسفة إنسانية مستقلة وضعية منبتة عن الله، عوراء قاصرة في مصادرها، وتحاول أن توحد بين الإنسان والطبيعة بإطلاق، وتعد الخالق والغيب كله مجرد ما ورائيات أو ميتافيزيقيا يمكن تجاهلها أو تجاوزها»[1].

أما الوحدة البنائية للقرآن الكريم، فالمقصود منها أن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضا، وبالتالي لا يجوز النظر فيه بشكل مجتزأ، بل يجب مراعاة الوحدة البنائية فيه، وأن ترد معاني الآيات بعضها إلى بعضها الآخر، تحاشيا للفهم المجتزأ الذي لا يعبر عن المعاني المطلوبة منها حقيقة.

نخلص من هذا العرض المركز والسريع لرؤية العلواني المعرفية، إلى أن الكشف عن علم الجمال القرآني باعتباره علما يهدف إلى تجلية آليات التأثير الجمالي للقرآن الكريم في النفس البشرية، لا يمكن أن تتحقق بعيدا عن

---

(١) طه جابر العلواني، الجمع بين القراءتين.. الوحي والكون، ص٢٢-٢٣.

«منهجية القرآن المعرفية» تلاوة، وتدّبراً وتـرتيلاً، وتنـزيلاً، وتفكـراً، وتعقلاً، وتذكراً، من خلال تصحيـح مسـار الدراسـات والأبحـاث الجمـالية، التي تتخـذ من القرآن الكريـم موضـوعا لها، وإخراج فلسفة الجمال الإسلامية من الضيق المعرفي الذي يعيق تطورها، ويكبح انطلاقتـها المحررة للأفهام السقيمة التي عطلت الذوق الجمالي للمسلم، فجعلتـه وهـو يسعى لبناء تجربته الجمالية القرآنية، غير قـادر على الجمع بين القـراءتين، وغير متسلح بالشروط المعرفية التي تؤهله للنظر للقرآن الكريم مستحـضرا وحدته البنائية الشاملة.

المعلم الثاني: التصور الصحيح لعلم الجمال الإسـلامي لا يتحقق إلا بـمفهوم صحيح للإسلام:

يقول الشهيد سيد قطب، رحمه الله: «يصعب أن نفهـم أي جانـب متفرد من جوانب الإسلام المتعددة – كالجانب الجمالي مثلا– ما لـم نفهم طبيعة الإسلام كوحدة متكاملة؛ إن الإسلام حركة إبداعية خالقة تستهدف إنشاء حياة إنسانية غير معهودة قبل الإسلام، وغير معهودة في سائر الـنظم الأخرى التي سبقت الإسـلام أو لحقته. تلك الحركة الإبداعية الخـالقة تنشأ عن تصور معين للحياة بكل قيمها وكل ارتباطاتها؛ فهو تصور جاء به الإسـلام ابتداءً، وهي حـركة تبدأ في أعمـاق الضمير، ثم تُحقّقُ نفسها في عالـم الواقع، ولا يتم تـمامها إلا حين تتحقق في عـالم الواقـع،

وحين يتم التكيف الشعوري في النفس البشرية بالتصور الإسلامي الإبداعي للحياة، فإن أثر هذا التكيف يبدو في كل ما يصدر عن هذه النفس -لا على وجه الإلزام والإرغام-، ولكن على وجه التعبير الذاتي عن حقيقة هذه النفس»(١).

من هنا، فإن الفكر الجمالي الإسلامي لا يمكن أن يتماهى في حركته مع الوحدة الكلية للإسلام، تصورا وتطبيقا، ما لم يجعل من المنهاج النبوي أساسا له، موقفا وممارسة، في جميع مجالات الإبداع الجمالي التي سيغشاها هذا العلم، من فنون وآداب وعلوم، فالثقافة هي التي تنتج الفن والجمال لا العكس، كما يقرر ذلك «ويلس»، عالم «الإثنوجرافيا الثقافية» بقوله: «الرأي عندي أن الحدود بين الفنون واللافنون يجب أن يعاد رسمها أو يعلن إلغاؤها كلية، فمن الضروري ألا يُكتفى بنقد وجهة النظر القائلة بأن المساهمة في الفن تنتج الثقافة، بل إعلان أن الثقافة هي التي تقوم فعليًا؛ وبوصفها طريقة للعيش، بإنتاج الفن، وليس العكس، أو على الأقل أن العلاقة الجدلية بين الاثنين هي التي تزودنا كبشر بالقدرة على الاتصال»(٢).

---

(١) سيد قطب، في التاريخ فكرة ومنهاج، ص٢٢ وما بعدها.

(٢) ديفيد إنجيلز وجون هينجستون، سوسيولوجيا الفن: طرق للرؤية، ترجمة: ليلى الموسوي، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٣٤١، يوليو ٢٠٠٧م، ص ١٥٠.

المعلم الثالث: إخضاع علم الجمال الإسلامي للعقيدة الإسلامية، تصوراً وأهدافاً:

نقصد بالتصور صدور هذا العلم عن خلفية عقدية واضحة، يفصح عنها العالم والمبدع قولا في تصريحاته وكتبه وفي تواصله مع الناس، وعملا من خلال إبداعاته ومواقفه وسلوكاته، بحيث يجب أن لا يسجل عليه ما يناقض مقتضى عقيدته الإسلامية، وهو إذ يفعل ذلك، يفعله من قبيل الاعتزاز بانتمائه لهاته العقيدة، وإسهامه في الدعوة إليها عبر علمه وتنظيره للجمال فلسفة وتصورا، وإبداعه الجمالي إمتاعا للذوق وإبهاجا للأحاسيس المرهفة العاشقة للحسن والبهاء، وهنا تحقق الجمالية الإسلامية في ارتباطها بالعقيدة، أحد أهم أهدافها، وهو تبليغ رسالة التوحيد إلى العالم، إفرادا لله بالعبودية، وتنزيها له عن الشركاء والأنداد.

في هذا السياق، وجب التنبيه إلى مسألة مهمة، تتعلق بما ذهب إليه بعض الباحثين من استحالة الجمع بين الدين والفن، أو العقيدة والجمال، وحجتهم في ذلك أن الدين يبحث عن الحقيقة، في حين أن الفن يبحث عن الجمال، وعليه لا يمكن في عُرفهم القاصر الجمع بين الحقيقة والجمال في كفة واحدة.

هؤلاء المفكرون وأترابهم يصدرون في مواقفهم هاته، عن عقليات متخمة بالتناقض والنظر التبسيطي المجزّئ للحقيقة، ونظرا لبدو تهافت

ادعائهم هذا، أكتفي بطرح الأسئلة التالية: متى كانت الحقيقة نقيضا للحسن والجمال؟ ومتى فصل الفلاسفة على اختلاف توجهاتهم ومذاهبهم بين ثلاثية الحق والخير والجمال؟ أليس الجمال حقيقة من حقائق الوجود الكبرى؟ أليست الحقائق التي ينشدها الدين ذات جمال من نوع خاص؟ وأخيرا، من قال إن الفن لا يسعى إلى إبراز الحقيقة؟

نطرح هاته الأسئلة متورعين عن الإجابة عنها، ليقيننا أن بين سطورها عناصر كافية لمن ينشد الحقيقة[1]، ونستمع إلى كلام بليغ لرائد الرواية الإسلامية المعاصرة، الدكتور نجيب الكيلاني، رحمه الله، يشرح فيه علة الاضطراب الذي ساد المفهوم الجمالي، ويرى أنه: «راجع إلى اختلاف المنطلق العقدي الذي يبدأ منه المفكرون، وإن تزعزع القيم الدينية في الغرب، والموقف السيء الذي وقفه المفكرون والأدباء والفنانون عامة من التصورات الكنسية وتاريخها، قد ساعد على محاولة إقصائها عن الحياة والفكر والفن بصفة عامة، وهي ظاهرة خصام بين الكنيسة والفن، كما حدث بينها وبين السياسة والعلم، وقد أسهم هذا الموقف في انحرافات خطيرة للفلسفات

---

(١) يقول الأستاذ محمد قطب، في كتابه «منهج الفن الإسلامي»: «إن كلا من الفن والدين يعبر عن الحقيقة الكبرى، فالقرآن يوجه الحس البشرى للجمال في كل شيء، وإنه يسعى لتحريك الحواس المتبلدة لتنفعل بالحياة في أعماقها، وتتجاوب تجاوبا حيا مع الأشياء والأحياء، وهنا يلتقي الفن بالدين... والفن الصحيح هو الذي يهيء اللقاء الكامل بين الجمال والحق، فالجمال حقيقة في هذا الكون، والحق ذروة الجمال، ومن هنا يلتقيان في القمة التي تلتقي عندها كل حقائق الوجود». محمد قطب، منهج الفن الإسلامي، ص١١٥.

والآداب الأوروبية، ولـــم يقف الأمر عند هذا الحد، بل انتقلت عدواه إلى بلدان العالـــم الإسلامي والشرق بصفة عامة، على الرغم من عدم وجـــود مبررات حقيقية لهذا الخصام في إطار المفهوم الإسلامي. ومهمتنـــا هنـــا أن نقضي على ظاهرة الخصام المفتعلة التي يحـــاول الـــضالون والمخـــدوعون الترويج لها في مجتمعنا الإســـلامي؛ فالإســـلام يُعلي القـــيم الجمـــالية، ويعلي من شأنها، ويحيطها بسياج من العفة والنقاء والطهر، ويفتح البـــاب واسعاً أمام الإبداعـــات الفنية والأدبية الخلاقة، ويزيد «الكلمة الجميلـــة» شرفاً حينما يكلفها بأعظـــم رســـالة، وأسمـــى مهمة، وأرقى دعوة نـــزل بها الروح الأمين»[1].

هذا ما يتعلق بالإسلام، أما المسيحية فقد عملت هي الأخـــرى علـــى الإعلاء من شأن الفن والجمال، ومن الأمور المستغربة التي يقف عليها المتتبع لمسيرة انتفاضة المفكرين والأدباء والفنانين الغربيين على الكنيسة، رفـــضهم المطلق لكل المظاهر الثقافية والفنية ذات الصلة بالدين، حتى ولـــو كانـــت إيجابية، لذلك فإن ما رُوِّج عن الكنيسة من رفضها للفن والإبداع والجمال غير صحيح، كما يوضح ذلك الدكتور «محمد علي أبو ريـــان» في كتابـــه «فلسفة الجمال، ونشأة الفنون الجميلة»، حيث يقول: «وعندما توطـــدت سلطة المسيحية في القرون الوســـطى بدأ الفن يتخلى عن المسحة الدنيويـــة

(١) نجيب الكيلاني، مدخل إلى الأدب الإسلامي، ص ١٦٩.

كما كان عند اليونان والرومان[1] وعاد مرة ثانية ليرتبط بالحياة الآخرة وحياة الفضيلة، ويصور النزعات السامية في الإنسان، والفضائل الدينية كالاستشهاد والتضحية والصبر، والأمل في حياة خالدة، وتمجيد الله وإعلاء كلمة المسيح والترنم بسيرة العذراء وصدق إيمان الحواريين وروعة تأثر القديسين وتصوير المواقف المسيحية بأسلوب ينضح بالإيمان الدافق الملتهب وذلك كما سنجد فيما بعد في صور صلب المسيح والعشاء الأخير ويوحنا المعمداني، والقربان والخطيئة والملائكة، كما نجد فن البناء وقد اصطبغ بالصبغة الكنائسية، فقد تطور الفن الروماني في بناء الكنائس وأصبح فنا مسيحيا خالصا يعرف بالفن القوطي وهو يرمز إلى معان دينية كالتوبة والأمل في الخلاص، ونجد ذلك واضحا في كاتدرائية نوتردام في باريس»[2].

نخلص إذن إلى تقرير الحقيقة التالية: إن إخضاع علم الجمال الإسلامي للعقيدة الإسلامية تصورا وأهدافا، يجعل كل ما ينبثق عنه من علوم وفنون في

---

(١) ذهب بعض الباحثين إلى أن الفنون في عهد الإغريق والرومان نشأت في أحضان الدين، يقول الدكتور «أحمد خليل»: «وإذا نظرنا إلى نشأة المسرح في الزمن القديم عند الإغريق والرومان، فسنجدها قد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالدين؛ ففي الأعياد المقدسة التي كانوا يقيمونها في المعابد، كانوا يقومون بأداء التمثيليات أو المسرحيات أو الملاحم التي تعبر عن علاقتهم بآلهتهم أو رغبتهم في تقديم الشكر لها، وخاصة بعد الحصاد، وقد سجل المصريون القدماء على حوائط مقابرهم ومعابدهم بالرسم والكتابة لوناً من هذه الفنون، التي تكشف عن طاعتهم لمعبودهم أو مصائرهم بعد الحياة الدنيا». أعمال ندوة العلمانية والفن، محور ماهية الفن، أحمد خليل، مجلة البيان اللندنية، العدد ١٦٢، شهر مايو ٢٠٠١/ ١٤٢٢هـ.

(٢) محمد علي أبو ريان، فلسفة الجمال، ونشأة الفنون الجميلة، ص٢٠٨.

خدمة الدين، ومن ثم فهو يؤدي أدوارا و«رسالة مقدسة»، كما يقول علي عزت بيجوفيتش، رحمه الله[1]، وهذا ما يضمن له التجـدد والاسـتمرار، عكس الفكر الجمالي الغربي، الذي أسر نفسه في إطار مادي ضيق، فتعرجن إبداعه، وتقولبت رؤيته للذات والكون بأن صارت نمطية وأحادية الجانـب، لا يرى منها إلا الإشباع المادي الصرف، فسقط بـذلك في هـوة فقـدان اليقين، والعبث، واللاجدوى، واللامعقول، والتشرذم والتشظي.

المعلم الرابع: تسخير علم الجمال الإسلامي لأداء أدوار رسالية وإنسانية وأخلاقية عالمية:

ننطلق في مقدمة شرحنا لهذا المعلم من مسلمة معرفية، ترى أن البعـد الإنساني والأخلاقي، يصدران من مشكاة واحدة، إنهما يتماهيان في المقاصد والغايات، ويكمل بعضهما بعضاً الآخرَ، ونعتقد أن علم الجمال الإسـلامي هو الـمؤهل للقيام بهاته المهمة الرسالية النبيلة، خاصة وهو يحمل رسـالة الإسلام، التي جاءت بقيمهـا الأخلاقية، لإنقاذ البشرية من الشقاء والتيـه الذي تعاني منه.

إن المتتبع للمشهد الجمالي العالمي المعاصر، يفاجأ بالكم الهائـل مـن الإنتاجات، في مختلف فنون القول ووسائط التواصل الـسمعي والبـصري والشفهي، كما يفاجأ بالـميزانيات الضخمة والإمكانات المادية والبـشرية

(١) علي عزت بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ص١٧٣.

الهائلة المرصودة لهاته الإنتاجات، التي تقصف الإنسان المعاصر وهو في بيته، بواسطة الآلات الجهنمية لتقنيات التواصل والإعلام، عبر الإنترنت والصحون المقعرة، التي قعرت وعي الإنسان فجعلته أسيرا للشاشة الصغيرة في البيت، وبلدت إحساسه فصار يستهلك كل ما تلفظه وسائل الإعلام من مواد، الغث فيها ينسي السمين، والرديء فيها يلغي الجيد، والاستثناء فيها يلغي القاعدة، يقول د.حلمي القاعود: «إن الفنون الدرامية في عالم اليوم لها تأثيرها الفعال؛ حيث يمكنها أن تصل بسرعة وسهولة إلى غرف النوم وتقدم للمشاهد أفكاراً وقيماً وسلوكيات يستوعبها ويتشربها بسرعة؛ لأنها تتسلل إليه وهو في حال استرخاء تام، لا يستطيع لها دفعاً. ومن ثمّ فإن أهمية التزام العمل الفني والجمالي بروح الدين تضحى ضرورة أساسية في تقديم التصور الصحيح والفكرة الناضجة والقيمة الإيجابية والسلوك المستقيم»[1].

إن العالم اليوم، في مسيس الحاجة إلى إنتاجات جمالية تُرجع الإنسان إلى إنسانيته، وتحقق له السعادة التي افتقدها في غمرة انشغالاته المادية، وعدم قدرته على المواءمة بين متطلبات الروح وحاجات الجسد، وتهب لحياته قوة وفاعلية ومعنى وغاية، وتمدها بأسباب النجاح، وتعزز لديه قيم الفضيلة

---

(١) ندوة العلمانية والفن، مشاركة د.حلمي القاعود، في محور ماهية الفن، مجلة البيان اللندنية، العدد١٦٢، شهر مايو ٢٠٠١/ ١٤٢٢هـ.

والحق والخير والجمال. هذا المعنى هو الذي دفع بالـــمفكر والأديب الغربي «بيتر»، إلى التراجع عن تبنيه لمذهب «البرناسية» و«الفن للفـــن»[1]، بعـــد عشرين عاماً ليـــقول: «إن الفن العظيم لا ينفذ شروط الفن الجيد فحسب - وهو ما يجب أن يفعله ابتداءً ليكون فنّاً - ولكنه يجب أن يعالج كـــذلك المسائل الإنسانية الكبرى، وعظمة الفن لا تعتمد على الشكل بـــل علـــى الـــمادة ، وعندما يـــكون الأدب أكبر تكريساً لزيـــادة ســـعادة النـــاس، ولإنقاذ المظلومين، أو لتوسيع نطاق التعاطف الإنساني، أو لتقـــديم حقيقـــة جديدة أو قديـــمة عن أنفسنا وعلاقتنا بالعالـــم، مما قد يعلي من أقـــدارنا، أو يشد عزائمنا في مقامنا بهذه الحياة، فإنه بهذه الصفة - أي الفـــن - مـــن الفن العظيم»[2].

وقد لخص «بيتر» هذا المعنى بشكل بديع في إجابته للطالب الجـــامعي الذي سأله قائلاً: لـــماذا يجب أن نكون أخلاقيين في الفن؟ فأجابه «بيتـــر» قائلاً: لأن ذلك غاية الجمال[3].

لعل هذا ما يفسر في تقديرنا النجاحات العالميـــة الـــمتتالية لـــبعض الأفلام، التي حققت نتائج باهرة وسْط عمالقة هذا الفـــن في المهرجانـــات

(١) هذا المذهب لا يحفل بالمضمون الرسالي للإنتاجات الأدبية، ويرى أن غايـــة هاتـــه الإنتاجات محصورة في جمال الصياغة والتركيب لا غير.

(٢) نجيب الكيلاني، مدخل إلى الأدب الإسلامي، ص١٣٠.

(٣) نجيب الكيلاني، مدخل إلى الأدب الإسلامي، ص١٣٢.

العالمية ذائعة الصيت، ويُرجع الكثير من النقاد السبب في هذا التألق إلى طريقة هاته الأفلام الجميلة في عرضها لمتطلبات إنسانية بحتة، بصورة نظيفة بعيداً عن الإسفاف والتهويل، فضلا عن عدم متاجرتها بالجنس، وترويجها المكثف لقيمٍ مجمعٍ عليها عند سائر الطوائف والديانات.

إن هذا التوجه من قبل علم الجمال الإسلامي نحو صياغة بدائل جمالية أخلاقية وإنسانية، يتعزز لدينا أكثر مع تنامي المظاهر الثقافية المنذرة بإفلاسٍ يأتي على الحضارة المعاصرة من جذورها، فالمشهد الفلسفي يكشف عن متوالية من التنظيرات لا تنفك تتجدد بوتيرة متسارعة، يجد المتخصص صعوبة بالغة في متابعتها، هكذا لم تكد العولمة بإيديولوجيتها المهيمنة تستقر في الأذهان، حتى سمعنا بفلسفة «نهاية التاريخ» مع «فرانسيس فوكوياما»، وهي فلسفة لم تصمد طويلا لبعدها المبرر للاستكبار العالمي، الذي سيستنجد بفلسفة أو بالأحرى بنظرية «صدام الحضارات» لـ«صمويل هنتجتون»، والتي عُدّلت لتصير «حوار الحضارات»، وأخيراً «تحالف الحضارات» مع معهدٍ للدراسات الاستراتيجية في إسبانيا.

هاته الحركية في المشهد الفلسفي، توازيها حركية أقوى في ثورة الاتصالات وتكنولوجيات الإعلام والتواصل، مع التحكم الزائد للشركات العابرة للقارات في مقدرات الأمم والشعوب، وسيادة ثقافة عالمية جديدة،

تتسلح بلغة «حقوق الإنسان» و«حقوق المـــرأة والأقليـــات» و«الحريـــة الجنسية»، مع إمكانيات واسعة للتدخل الدولي في أي مكان مـــن «القريـــة الكونية» التي تتضاءل تدريجيا أمام التوسع العنكبوتي للـــشبكة المعلوماتيـــة العالمية. وقد أدى هذا المشهد المعقد، إلى إيجاد واقع جديـــد أكثـــر حـــدة وشراسة، وبالتالي أكثر تعقيداً وتشابكا، فكان من الطبيعـــي وســـط هـــذا الخضم المتلاطم من التطورات، وفي ظل غياب مرجعية قيمية كونية حاكمة، أن تذبح القيم ويضحى بها على مستوى النظم والشعوب؛ لذلك فإن تـــأثر الإنسان بجمال القرآن وخضوعه لجلاله، هو وحده الكفيل بإخراج إنـــسان القرن الحادي والعشرين من متاهات الضياع والخيبة، وهو وحده القادر على إكسابه التوازن الذي يحتاجه كي يحيا حياة بعيدة عن التوتر والضغط، يقول «بريجنسكي» مستشار الأمن القوي الأمريكي السابق في كتابه «الانهيار»: «نحن أصبحنا مجتمع إباحة الاستباحة؛ الفرد في الولايات المتحدة استباح كل شيء، ولـــم يعد في قاموسه كلمة حرام أو محرم؛ وبهذا لا تستقيم حضارة ولا تستمر. السفينة كلها تغرق ولا يـــملك أحد إنقاذها! وإنقاذها مرهون بالعودة إلى الدين والأخلاق»[1].

---

(١) الانهيار، بريجنسكي، ص١٩. هذا الكلام مقتبس من تدخل الدكتور إبراهيم الخولي، ضمن مشاركته في الحلقة الثانية من ندوة العلمانية والفن، حرر أعمالها فـــي تقريـــر شامل الأستاذ وائل عبد الغني، لفائدة مجلة البيان اللندنية، العدد ١٦٢، شـــهر مـــايو ٢٠٠١/ ١٤٢٢هـ.

لكن هاته العودة ستكون أسرع وأوفق وأكثر فاعليـــة إذا حملـــت في قوالب جمالية أخاذة، وصيغت في صيغ تتوافق والذوق الجمـــالي المرهـــف، ولُفّتْ في لفائف من البهاء والحسن، مخـــاطبة فطرة الإنسان، منبهة إياه إلى ما به تتحقق سعادته في الدنيا والآخـــرة: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام:١٦٢-١٦٣).

المعلم الخامس: الجمـــال في الإسلام شأن حياتي ويومي، لا يمكن تصور وجود حقيقي للحياة بدونه:

يتوجه هذا المعلم لتوضيح الجانب التربوي الذي يجب أن ينتبـــه إليـــه علماء الجمال المسلمين، انطلاقا من اعترافهم بحاجـــة المـــسلم الـــضرورية للجمال تعبيرا وذوقا وممارسة، وتعليمه أن الجمال وتذوقه نعمـــة في الـــدنيا والآخرة، تستحق شكر الله والثناء عليه.

فقد رأينا في مباحث سابقة كيف أن النص القـــرآني الكـــريم يقـــرن الظواهر الجمالية كلها بضرورة شكر مسبغها وباريها، كمـــا أن نـــصوص الحديث الشريف بينت أن المسلم مطالب بإظهار نعـــم الله عليـــه بالزينـــة الظاهرة والباطنة، وعدت ذلك من شكر الله ومحبته.

إذا كان الأمر كذلك، فعلى المسلم أن يعلم أن إدراك الجمال يتجـــاوز الحدود الحسية والمادية، إلى آفاق أرحب مدىً وأوسع أفقا، فالجمال موجود

في الطبيعة والنفس، في المبادئ والقيم، في التصورات والمواقف، في شـــبكة علاقات المسلم مع ربه عبادة وابتهالا، ومع نفسه تفكرا واستبصارا، ومـــع الكون عمارة واستخلافا، ومع (الغير) تعارفا وتعاونا. إن هذا التنوع يقتضي توسيع مجالات إدراك الجمال واكتشافه وتذوقه، بدءا بالتجليـــات المدركـــة بالحواس، مرورا بتلك المدركة بالعقل والمنطق، ثم بالخاطر والوجدان، وأخيرا ما لا يوصل إليه إلا بالبصيرة الخفية التي يصفها التعبير القرآني بقوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ (الحج:٤٦)، وهذا يتطلب دربة دائمة، ورعاية متواصلة، وتكوينا مستمرا لتنمية الذوق الجمالي للمسلم ومراكمة خبراته الجمالية في مختلف الفروع والـــمجالات.

الأمر يقتضي إذن، تربية جمالية موجهة وقاصدة، تهدف إلى تـــشكيل السلوك الجمالي للمسلم، وتحيينه ليتجلـــى في إبداعـــه اليـــومي، ركوعـــا وسجودا، دعاء وابتهالا، صياما وتهجدا، كتابة وتأليفا، رسما ونقشا، بنـــاء ومعمارا: «ويـــمتدُّ الجمال في الإنسان المؤمن؛ فإذا مصدر الجمال فيه إيمانه، فتراه في جمال الفطرة التي فطره الله عليها، ثمّ في نفـــس الإنـــسان المـــؤمن وخُلُقه، ثم في عمله، ثم في كلمته وبيانه: صبر جميل، صفح جميل، ســـراح جميل، هجر جميل، وغير ذلك. هكذا يمتد الجمال في تصّور المؤمن حتى إنه يعيش الجمال الحقّ في أمره كله، على قدر إيمانه واتصاله بـــالكون وخـــالق الكون رب العالـــمين، يعيشه حياته كلها، ويـــمتد الجمـــال إلى الكلمـــة

والبيان، ليكون الأدب في الإسلام هو الأدب الملتزم التزام صـــدق ويقـــين، والتزام لغة ودين، والتزام شكل ومضمون»[1].

هل يـــمكن إذن أن نتحدث في هذا السياق عن ميثاق جمالي يـــؤطر حياة المسلم ويضبطها؟ وما هي حدود التجمل ومحاذيره؟ وما هو المطلـــوب شرعا من المسلم بعد الطهارة والنظافة؟ وما هي الـــمـــجالات التي يجب أن تُعْطَاها الأولوية في التربية الجمالية للمسلم؟

إن الحديث عن ميثاق جمالي، يأخذ مشروعيته من تعاليم الإسلام الـــتي تحض المسلم على أخذ الزينة في كل تفاصيل حياته اليومية، بدءا من التطهر للصلاة والاهتمام بجمال المظهر والمـــلبس والمـــسكن والمركـــب، مـــرورا بجماليات التواصل والتخاطب، والتوجيهات الـــمرتبطة بالمبالغة في التزين في العلاقات الزوجية، وهي علاقة يحيطها الإســـلام بهالـــة مـــن التوصـــيات الجمـــالية التـــي لا تغفل تفاصيل الكلمة الجميلة، والنظرة الحانية، واللمسة الرقيقة، وانتهاء بالآداب المختلفة لقضاء الحاجة والسواك والتطيب وانتقـــاء الجميل من الثياب.

من الناس من يظن أن التقرب إلى الله لا يتحقق إلا بإهمـــال المظهـــر، وخشونة الثياب، ويفهم حديث «**الْبَذَاذَةَ مِنَ الإِيمَانِ**»[2] على شـــاكلته فيزهد ويتدروش. ومن الدعـــاة المتشـــددين من يرغب أن تلبس المـــرأة

---

(١) علي عدنان رضا النحوي، الأدب بين الجمال والزخرف، ص٨.

(٢) سبق تخريجه.

مُسوحا من الجلد أو من مادة صلبة كما كان يلبس الرهبان، ومن الناس من يقرأ قول رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ**»، فيستبيح من التجمل ما يتجاوز به الحد والذوق، متجاهلا أن المظهر السني هو ما كان بين الخشونة والرفاهة، توسط جميل بين رذيلتين.

هذا التوسط الجميل، هو مطلب الإسلام وتوجيهه الدائم للمسلم في سلوكاته الجمالية مظهرا ومخبرا، ظاهرا وباطنا، وهو الذي يمكّن المسلم من ترسيخ الحسن والجمال باعتباره قيمة كبرى في تكوينه وبنائه معرفياً وسلوكياً وذوقياً، وهذا لن يتحقق إلا بتربية جمالية ترسم له مسارات البناء، وتوضح له الصور والمعالم، على هدى من جمال القرآن، وبصيرة من ضياء الهدي النبوي الراشد.

المعلم السادس: التوجه نحو تحقيق عالمية الجمال الإسلامي من خلال إنتاجات نوعية ومتميزة:

يثار إشكال آخر يتعلق بثنائية الخصوصية والعالمية في علاقتهما بعلم الجمال الإسلامي؟ هل علم الجمال الإسلامي محلي أم عالمي التوجه؟ ماهي محددات كونه عالميا؟ ومتى نقول: إنه أسير للإقليمية الضيقة؟ وكيف يمكن لهذا العلم أن يحقق عالميته دون ذوبانه في إكراهات العالمية التي تفقده خصوصية المبادئ والمنطلقات التي يتميز بها؟ وكيف يمكن لرواد هذا العلم

من منظرين ومبدعين، التوفيق بين قيم الإسلام وما يناقضها من قيم الحداثة الغربية التي يتبناها أغلب الجماليين العالميين؟

يقول الدكتور نجيب الكيلاني، رحمه الله: «التراث الجمالي العالمي ملكية شائعة كالدين والفلسفة والعلوم، لا يحتكرها شعب دون آخر، ولا تستحوذ عليها أمة دون باقي الأمم، على الرغم من اختلاف اللغات الفنية، وخصوصيتها في التعبير والاستعارة والمجازات المختلفة. ويبقى دائماً في الفنون الأدبية عناصر تكاد تكون لازمة لهذا اللون أو ذاك، فللشعر مثلاً موسيقاه وإيقاعاته وأخيلته، وللقصة أحداثها وعقدها وشخصياتها، ولها بدايتها ونهايتها، وللمسرحية أشراطها الزمانية والحوارية وجاذبيتها الدرامية الخاصة، وهذه كلها ميراث مشترك»[1].

بينا في الصفحات السابقة صحة نسبة صفة «الإسلامي» إلى «علم الجمال»، وعلمنا في التصريح السابق للكيلاني، رحمه الله، أن التراث الجمالي العالمي ملكية شائعة ومشتركة بين ساكنة الأرض، فلم يبق أمام «علم الجمال الإسلامي» إلا الانطلاق نحو غاياته النبيلة تنظيرا وممارسة، من خلال السعي الحثيث، والوعي الصادق، الهادف إلى تأصيل القيم الجمالية، والتأسيس لها قرآنيا، حتى تتخذ لها مواطئ قدم راسخة في سباق التنافس الجمالي المستعر عالميا، لاستمالة الأذواق والأحاسيس، ومعها ميول الناس واختياراتهم واتجاهاتهم الفكرية والدينية أيضا.

---

(١) نجيب الكيلاني، مدخل إلى الأدب الإسلامي، ص ١٤٠.

وهذا يصير علم الجمال الإسلامي: «إطاراً للتنمية الإنسانية وبناء مجتمع المعرفة الإسلامي، ذلك أن تحققه يعني تكوين منظومة معرفية مؤطرة بالحسن والجمال لكنها ذات جوهر روحي وأخلاقي وإنساني ينفتح فيه الإسلام على كماله المنتظر، في مجاله الحيوي البشري (المسلمون في العالم)، وفيما لم يفكر فيه بعد من مشروعات وحلول لمشكلات جديدة يفرضها ما تمارسه العولمة الثقافية من ابتزاز وهيمنة على الثقافات التي توصف الآن بالهامشية بهدف تفتيتها واستيعابها»[1].

وخلاصة القول: إن المعالم الستة التي اقترحناها أعلاه، تبدو في نظرنا كافية لتسديد مسيرة علم الجمال الإسلامي، ومن شأن احترامها والعمل بها أن يضع علم الجمال الإسلامي في المسير الصحيح ليؤدي دوره الرسالي المنتظر، في عالم يحتاج منتسبوه إلى الارتفاع بأذواقهم عن الماديات، والسمو بأرواحهم إلى مساحات الصفاء المهجورة، وتقويم اعوجاج أنفسهم التي فقدت الاتجاه الصحيح لبوصلة الوجود ومعناه وفلسفته، والتصدي للهجمة الشرسة لثقافة كونية لا تتوقف آلتها عن مسخ إنسانية الإنسان وتشويه فطرته وتصييره آلة للإنتاج والاستهلاك، في غفلة عن مصيره الأخروي، ومتطلبات روحه ووجدانه.

---

(١) هلال محمد جهاد، جماليات القرآن: مشروع فلسفة جمال عربية.. إسلامية معاصرة، ص١٩-٢٠.

خاتمة

ها نحن أولاء حططنا عصا الترحال في خاتـــمة هاته الدراسة، والعين تتشوف إلى ما في جؤنتها من خلاصات، وما انتهت إليه من نتائج وحقائق.

ففي طريق تعرُّفنا على السمات العامة لـــ«علم الجمال الإســـلامي»، تتبعنا مفهوم الجمال من خلال التنقير عن أبعاده ودلالاته، وتتبعنا مفاهيمـــه القرآنية، وصحبنا العلماء والفقهاء والمفسرين والمفكرين والصوفية واستطلعنا آراءهم ومواقفهم ووجهة نظرهم في جماليات القرآن، سعيا منـــا لتأصـــيل وتجديد كيفيات التعـــامل والنظر إلى هاته الجماليات وفق منظور معـــرفي، يمتح من الرؤية المعرفية القرآنية والنبوية، وينفتح على معطيات علم الجمـــال والفن، ويوظف آليات الفلسفة والنقد، ويستعـــين على ذلك بكل الأدوات التي تفتل في تقوية حبل الرؤية العميقة لـــــ«علم الجمال الإسلامي» مـــن لغة وتأويل ودلالة.

وهكذا بينا أهمية الجمال في حياة الإنسان، ووقفنا عند الدور الوظيفي الذي يؤديه، من خلال توسيعه لأفق الحياة، وجعله مفتوحا أمام عوالـــم غير متناهية من الإبداع والاجتهاد في العبادات والمعاملات، وتقويتـــه لحـــوافز الإنسان في مواجهته لمتطلبات الذات وإكراهات الواقع، وتقريب هاته الذات

من جوهرها الإنساني، عبر المواءمة بين أمزجتها وخواطرها الداخلية؛ حفاظاً على اتساقها الداخلي واتزانها النفسي والعاطفي، وتنميةً لشعورها وذوقها الجمالي، وشحذاً له في اتجاهٍ أرقى وأنبل، ليعشق المشترك الإنساني، ويفكر في ما يجمع الناس ويوحد مشاعرهم واتجاهاتهم، ويعمم الخير والفضيلة والسعادة والطهر على الناس، كل الناس.

ومن خلال استقرائنا لمصطلحات الجمال في النص القرآني، تمكنا من تحديد مجموعة من المفاهيم الجمالية، ركزنا على ما اعتبرناه منها محوريا ومحددا للرؤية الجمالية القرآنية، وهكذا وقفنا عند مفاهيم «الجمال» و«الزينة» و«الحسن» و«التسوية»، وتتبعنا دلالاتها في السياقات القرآنية المختلفة التي وردت فيها، ورأينا أنها تشكل منظومة متكاملة من المفاهيم لا غنى عنها لمعرفة النسق الجمالي القرآني، الذي يستنفر المسلم ويحفزه بألوان مختلفة من البيان، للبحث عن الحسن أنى وجده في كتاب الله المنظور، ويطالبه بعد ذلك باتخاذ هذا الحسن دليلا له في العبادة والعمل، وفي العلاقات العامة مع أهله ومع غيره، مع تنبيهه إلى عدم الوقوع في شراك الفتن التي خلقت لاختبار إرادته وتمحيص إيمانه، فإذا حياته كلها تستوي على إيقاع الحسن والزينة والجمال، أخذا وعطاء، تمثلا وتطبيقا، قولا وعملا؛ فالمسلم الحق هو من يعيش بالحسن، ويدعوا إليه، وينشره في الآفاق مرددا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت:٣٣).

إن الحديث عن «علم جمال إسلامي»، يقتضي لزوما التأصيل القرآني لمفاهيمه ومدلولاته، والتقعيد المنهجي له، حتى تتأسس الرؤية الجمالية الإسلامية على مدامك قوية؛ تعصمها من أن تنفلت عن خدمة البعد التوحيدي الذي ينتظمها من كل ناحية.

وهكذا بينا عبر ستة معالم واضحة، أن القرآن الكريم هو الأساس الذي تستمد منه كليات علم الجمال الإسلامي وأصوله، كما أن التصور الصحيح لهذا العلم لا يتحقق إلا بمفهوم صحيح لقيم الإسلام وتعاليمه وأفكاره ومنهجه، وهذا يقتضي إخضاعه وتوجيهه لخدمة العقيدة الإسلامية تصورا وأهدافا، تنظيرا وتطبيقا، وتسخيره لأداء أدوار رسالية وإنسانية وأخلاقية، تتجاوز الحدود الإقليمية الضيقة، وتنفتح على الآفاق المفتوحة للكون والحياة. لكن قبل التوجه لتحقيق عالمية الجمال الإسلامي وكونيته، وجب على الدعاة والمفكرين والمثقفين المسلمين، أن يجتهدوا في إبداع الصيغ الملائمة التي يمكنها أن تجعل من «الجمال» شأنا حياتيا ويوميا، لا يمكن تصور وجود حقيقي لحياة المسلم بدونه، كما لا يمكن تحقيق التمكين للأمة الإسلامية في معترك تدافعها الحضاري مع الأمم، دون العبور عبر بوابة الجمال، بالفهم المتكامل الذي اجتهدنا في تقديمه، عبر صفحات هذا البحث.

هذا الفهم يتلخص في أن «علم الجمال الإسلامي»، يجب أن يتوجه رأسا لبيان الكيفيات الجمالية التي يمارس بها النص القرآني تأثيره على

متلقيه، بنحوٍ يتجاوز التأثير الظاهري، ليصل إلى أعماق النفس البشرية؛ تصويباً للسقيم من الأفهام وتعديلا لها في اتجاه الصحة والصواب، وتقويما للخاطئ من السلوكات وتصحيحا لها في اتجاه الاعتدال والانسجام، وإنهاضا للكَالِّ من الهمم، وتقوية للساقط منها في اتجاه السمو والرفعة، وحفزا للخامل من الإرادات وتوجيهها لها نحو معالي المطالب وسني المقاصد، وصناعةً للباعث على العمل، وصياغة له صياغة سليمة، وتغذية لجذوره ورعاية لها؛ حتى لا يخفت توهجه ولا يبهت تألقه، وحتى يظل في تجدد دائم، ويتعزز بهمة لا تفتر عن التفاعل الإيجابي الدائم مع جماليات القرآن، اكتشافا لها، ومعرفةً لآليات تأثيرها وفعلها في النفوس، وتطبيقا لها في واقع الحياة والأنفس، وتأطيرا لحياة الإنسان بالقرآن، حتى يصدر في كل مواقفه وتصرفاته وانفعالاته، عن هدي القرآن، وجميل توجيهه للنفس البشرية، التي لن تتذوق جمالية التعبد، وأنس التعايش، وحلاوة العيش؛ إلا في امتثالها الواعي والطوعي لجماليات القرآن الكريم؛ عقيدة وشريعة ومنهج حياة.

ونرجو أن يكون هذا البحث لبنة من لبنات اكتشاف المنهج الجمالي في القرآن الكريم، فما كان فيه من توفيق وصواب فمن الله، وما كان فيه من خطأ وتقصير فمصدره العجز المبذور في الطينة، وأسأل الله بجماله وجلاله، أن يتقبله مني، عربون صدق في خدمة كتابه، وشهادة انبهار بجماله، ودليل خضوع لجلاله، جل الله، ولا إله إلا الله محمد رسول الله.

الفهرس

وكـــــلاء التـــوزيـــع

البلد	اسم الوكيل	رقم الهاتف	عنوانه
قطـــــر	دار الثقافـــــــــــة دار الثقافة «قسم توزيع الكتاب»	٤٤٦٢٢١٨٢ ٤٤٤١٣٤٧١	ص.ب: ٨١٥٠ – الدوحة فاكس: ٤٤٤٣٦٨٠٠ -بجوار سوق الجبر
البحـــرين	مكتبـــــــــــة الآداب	٢٣١٠٦٢ ٢١٠٧٦٨(المنامة) ٦٨١٢٤٣ (مدينة عيسى)	ص.ب: ٢٨٧ – البحرين فاكس: ٢١٠٧٦٦
الكويـــت	مكتبة دار المنـــار الإســـلامية	٢٦١٥٠٤٥	ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي شارع المثنى رمز بريدي: ٢٣٠٤٥ فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤
سلطنة عمان	مكتبـــة علـــوم القـــرآن	٧٨٣٥٦٧٧	ص.ب: ١٩٦٠ روي ١١٢ فاكس: ٧٨٣٥٦٨
الأردن	شركة وكالة التوزيع الأردنية	٥٣٥٨٨٥٥	ص.ب: ٣٣٧١ – عمان ١١١٨١ فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣
الـــــيمن	مجموعـــة الجيـــل الجديـــد	٧٨٠٤٠-٧١٣٦٣ ٢٧٠٣٨-٧٥٨١١	ص.ب: ٥٤٤ – صنعاء فاكس: ٢١٣١٦٣
الـــسودان	دار الريـــان للثقافـــة والنـــشر والتوزيع	٤٦٦٣٥٧	ص.ب: ١١١٦٦ – الخرطوم فاكس: ٤٦٦٩٥١
مـــــصر	دار السلام للطباعـــة والنـــشر والتوزيـــــع والترجـــــــة	٢٧٤١٥٧٨ ٢٧٠٤٢٨٠ ٥٩٣٢٨٢٠	ص.ب: ١٦١ غورية ١٢٠ ش الأزهر – القاهرة فاكس: ٢٧٤١٧٥٠
المغـــرب	مكتبة منار العرفان للنشر والتوزيع	٧٣٣٣٢٩	نهج موناستير رقم ١٦ – الرباط
الجزائـــر	دار الوعي للنـــشر والتوزيـــع	٠٢١٣١٧٠١٣٦٤٦ ٠٢١٣٥٤٥١١٠١٥	القطعة رقم ١٤٢ ب حي الثانوية – الروبة -الجزائر
إنكلتـــرا	دار الرعايـــة الإســـلامية	(01) 272-5170/ 263-3071	Muslim welfare House, 233. Seven Sisters Road, London N4 2DA. Fax: (071) 2812687 Registered Charity No:271680

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

هاتف: ٤٤٤٤٧٣٠٠

فاكس: ٤٤٤٤٧٠٢٢

برقياً: الأمة – الدوحة

ص.ب: ٨٩٣ – الدوحة – قطر

موقعنا على الإنترنت:

www. sheikhali-waqfiah.org.qa
www.Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني: E.Mail

M_Dirasat@Islam.gov.qa

ثمن النسخة

الأردن	(٧٠٠)	فلس
الإمارات	(٥)	دراهم
البحرين	(٥٠٠)	فلس
تونس	دينار	واحد
السعودية	(٥)	ريالات
السودان	(٥٠)	قرشاً
عمان	(٥٠٠)	بيسة
قطر	(٥)	ريالات
الكويت	(٥٠٠)	فلس
مصر	(٦)	جنيهات
المغرب	(١٠)	دراهم
الجزائر	(١٢٠)	ديناراً
اليمن	(٤٠)	ريالاً

* الأمريكتان وأوروبا وأستراليا وباقي دول آسيا وأفريقيا: دولار أمريكي ونصف، أو ما يعادله.

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

جائزة الشيخ

علي بن عبد الله آل ثاني

للعلوم الشرعية والفكر الإسلامي

إسهامًا في تشجيع البحث العلمي والارتقاء الثقافي الفكري، والسعي إلى تكوين جيل من العلماء، تطرح موضوعها لعام ٢٠١١م

« فقه التغيير وبناء الأمة الوسط »

آخر موعد لاستلام البحوث حزيران (يونيو) ٢٠١٣م

- **مدخل:**

مفهوم الأمة؛ مفهوم التغيير؛ تعريف الأمة الوسط؛ الوظيفة الحضارية للأمة الوسط؛ أبعاد الشهود الحضاري (الشهادة على الناس وهدايتهم إلى الخير)..

- **المحاور:**

- **عوامل تشكيل الأمم:** لمحة تاريخية؛ متطلبات بناء أمة الرسالة؛ التغيير بين الأمة والدولة؛ العقيدة والسياسة في حقبة العولمة.
- **سنة التغيير:** سنن المدافعة والصراع بين الخير والشر؛ التغيير بين ذهنية الاستحالة وذهنية السهولة؛ مشروعية التغيير؛ أسباب ودواعي التغيير؛ التغيير إنتاج نخبة وإنجاز أمة.
- **فقه تغيير المنكر:** وسائل التغيير؛ آداب وضوابط التغيير؛ أبعاد منهجية التغيير؛ منهج النبوة في التغيير.
- **إعادة البناء ومرتكزات النهوض:** مقومات البناء (الإمكان الحضاري)؛ حركات التغيير والإصلاح وعبرتها؛ توفير شروط وظروف الميلاد الأول (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلُح به أولها)؛ عقبات وتحديات على طريق التغيير؛ استراتيجية وشروط النهوض.
- **رؤية مستقبلية لمعاودة بناء الأمة الوسط.**

قيمة الجائزة (١٧٥) ألف ريال قطري

- ## شروط الجائزة:

١- أن يكون البحث قد أُعدّ خصيصًا للجائزة.

٢- أن تتوفر في البحث شروط البحث العلمي.

٣- أن يلتزم الباحث بالمحاور المعلنة جميعها.

٤- يُقدم البحث باللغة العربية من ثلاث نسخ مطبوعة، ومخزنة على قرص (CD) مرفق بالبحث، إضافة إلى ملخص باللغة الإنجليزية، إن أمكن.

٥- لا يقل حجم البحث عن (٢٠٠) صفحة، ولا يزيد على (٣٠٠) حوالي: (٦٠،٠٠٠) كلمة بخط (Traditional Arabic) بحجم (16).

٦- تحجب الجائزة في حالة عدم ارتقاء البحوث للمستوى المطلوب.

٧- يجوز اشتراك باحثين أو أكثر في كتابة بحوث الجائزة.

٨- تسحب قيمة الجائزة، إذا اكتشف أن البحث مخالف لبعض شروط الجائزة.

٩- لا تُمنح الجائزة للفائز مرة أُخرى إلا بعد مرور خمس سنوات.

١٠- التزام الباحث الفائز باستدراك ملحوظات المحكمين.

١١- على الباحث أن يرفق نبذة عن سيرته العلمية، ونسخة مصورة عن جواز سفره.

*** ترسل البحوث بالبريد المسجل على العنوان التالي:**

ص.ب: ٨٩٣ - الدوحة - قطر

لمزيد من الاستفسار:

هاتف: ٤٤٤٤٧٣٠٠(٩٧٤+)- فاكس: ٤٤٤٤٧٠٢٢

البريد الإلكتروني: m_dirasat@islam.gov.qa

موقعنا على الإنترنت: www.Islam.gov.qa